أمـل

بلا عنوان

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١

هاتف : 010003288596

بريد إلكتروني : Dream.pen92@gmail.com

أمل بلا عنوان

مريم بن صالح

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠١٩م

غلاف : عمار جمال العبد

تدقيق لغوي وتصميم : الديوان للتصميم وخدمات النشر

رقم الإيداع : ؟؟؟؟ / 2019

I.S.B.N: 978-977-488-???-4

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

أمـل

بلا عنوان

رواية

مريم بن صالح

DREAM PEN
FOR TRANSLATION & PUBLISHING
AND DISTRIBUTION

إهداء

إلى عائلتي.. أمي أبي وأحبتي،

إلى مَن منحوا «أمل بلا عنوان» طريقًا إلى النور..

«طنط منحة».

ربما نُخذل في كلِّ يوم من أُناسٍ

ظننَّا أنهم الأفضل في حياتنا، لذا

أهدي كتابي إلى كل الموتى الذين

مرُّوا بحياتي..

إلى «توأمي التي لم أرها يومًا» حسنة..

إلى جدي، جدتي، والعم مالك..

إلى أعز إنسانة دخلت قلبي وأبَت

أن تخرج منه

«إخلاص»

رحمهم الله جميعًا

المقدمة

«أمل بلا عنوان» هي بداية لمجموعة من الروايات الهادفة التي تُوجَّه إلى عدة فئات عُمريَّة مختلفة، حيث يستطيع الكل قراءتها والاستمتاع بها في طابعٍ هادف خالٍ من أيِّ صورةٍ من صور المبالغة.

أعزائي، صغارًا كنتم أو كبارًا؛ احلموا، اطمحوا، ثابروا واجتهدوا لتحققوا ما تريدونه في هذه الحياة بكل إصرار، واجهوا مخاوفكم وآمنوا بقدراتكم، علَّكم تصِلون إلى بداية طريق جديد يفتح أمامكم آفاقًا جديدة.

«أمل بلا عنوان» عبارة عن مقالات متعددة المواضيع في رواية قصيرة.. فكرة أمل بلا عنوان هي الإفادة والاستفادة من مواقف بسيطة لبعضٍ منَّا، لكنها تشكِّل فارقًا كبيرًا للبعض الآخر.

أعتقد أن «أمل بلا عنوان» ستكون بداية لسلسة من الروايات المتميِّزة، ذات الأحداث المتداولة التي ترسِّخ في صغارنا معنى حب الآخرين، والصدق في الأفعال، وعند كبارنا معنى العطف والاحترام.

هذه هي النواة الأولى لسلسلة «أمل بلا عنوان».

أرجو أن تنال بدايتها إعجابكم..

* * *

إنها البداية فقط

لكلٍّ منَّا بدايته التي لم يخترها ، بل قدِّرت له ، ومصائبه التي لم يردها ، بل قدِّرت عليه.. ربما أكثر ما يعجبنا في هذه الدنيا جمال الكون وما خلقه الله لنا من نِعَم كثيرة ، وقد كانت النعمة المفضلة لدَيَّ من بين كل النِّعم التي وهبني الله إياها ؛ أنني تربيت وسط عائلة بسيطة ، فقد جعلت البساطة من أحداث حياتي «أمل بلا عنوان».

بدأت قصتي حينما كنت في الخامسة من عمري ، حيث تأرجحَت حياتي من حلوة إلى مُرَّة ، ثم من مرة إلى حُلوَة ، حيث ضاعت سنوات طفولتي وتبخَّرت حينما فقدتُ قدرتي على المَشي وأصبحتُ مُقعَدة على كرسي متحرك ، فذهبَت الأحلام ورحلَت الأماني.

كيف أستطيع النجاح مع كل المتاعب التي ستقابلني؟

هل أستطيع احتمال نظرات المجتمع لي كفردٍ مُعاق؟

هل سأجعلهم يندمون على نبذهم لي؟

وهل سأقفُ على قدمي ثانيةً؟

* * *

أبي «ربيع» موظف بسيط في محطة قطار القرية ، أمي «صفاء» خيَّاطة متواضعة تعمل جاهدة لمساعدة زوجها ، أختي «چوليا» ،

أخـي «چيمـي»، وأخيرًا أنا.. صاحبة الأمـل الذي يكون دومًا بلا عنوان، بل يَدفعُ فقط للمُضِيِّ قُدُمًا نحو المجهول..

يوروشيل

* * *

كان نهارًا جميلًا يوم ذكرى ميلاد أخي «چيمي»، فقد قرر والدي في ذلك اليوم أن يُحقِّق رغبة أخي في ركوب السيارة، سعِد الجميع بهذا فجهزنا أنفسنا بشوقٍ، استطاع أبي بعد ساعتين أن يحصل على موافقة أحد السَّادة في استعارة السيارة لنصف يوم، وقد فعل كل ما باستطاعته ليحصُل على هذه الموافقة التي تُعد معجزة كبيرة في تاريخ السيد «توماس» المشهور بين الناس بطمعه وغروره، ركبنا السيارة في سرورٍ وقررنا الذهاب إلى المدينة بسبب إلحاح «چيمي»، مَرَّ الوقت بسرعة وأخذَنا أبي إلى مطعم بسيط أنفقَ فيه كلَّ مدَّخراته وهو يبتسم، لكن بداخله استسلام كبير، فهمتُ هذا من نظراته إلى أمي التي كانت تُجيبه بلُغةِ العيون:

- سعادة أطفالنا أهم من المال.

استمتعنا بنهارنا ولعبنا عدة ألعاب مسلية معًا، وفي طريق العودة في الظلام الحالك، ولأن أبي كان متعبًا، وكان لا بد من الوصول في الوقت المحدد لإرجاع السيارة إلى صاحبها الجشع؛ انحرفنا عن الطريق ومن ثَمَّ... حادث مرور مُروِّع أدَّى إلى تغيير حياتي تمامًا.

ألمي في الحياة

استيقظتُ فوجدت نفسي بين أربعةِ جُدرانٍ بيضاء، أحسستُ بتعبٍ شديد، حاولتُ التَّحرك لكنِّي لم أستطع، كنت أظن في ذلك الوقت أنِّي أُمثِّلُ في إحدى المسرحيات الجميلة وإنني أقوم بدور الأميرة النائمة.. بعد لحظات جاء رجلٌ أطوَل من والدي فقلتُ في نفسي إنه الحارس الملَكي، لكنَّ درعُه قد اختفى فارتدَى كمامة تغطي وجهه، وثيابًا أنيقة نوعًا ما، لكنه لم يلتزم بدورِهِ، حيث حاول تقليبي وتكلَّم مع فتيات كُنَّ معنا في الحجرة، إنهن بالتأكيد وصيفاتي، شردت أثناء ذلك وقلت في نفسي:

- كيف لهذه القصة أن تنتهي، جدَّتي «نانسي» لم تكْمِلْها لي، في كل مرة تنام وتتركني وتنسى التكملة في اليوم التالي، فتُعيد على مسامعي الأحداث نفسها، وأحيانًا تخلط بين سندريلا، وبياض الثلج، والأميرة، فتجعلُ سندريلا هي مَن أكلت التفاحة، وبياض الثلج هي مَن رقصت مع الأمير، وأحيانًا تتجنَّب الأميرة.

هل تعرفون نهاية القصة؟ شاركوني بها إذَن.

- صغيرتي ل... ت...خ..

- ما الذي يقوله؟ أنا لا أسمع كلماته، أشعرُ بالتعب، اصرُخ قليلًا.. ماذا بك؟

كان يُلوِّح بيدِه كأنَّه يريد شيئًا لكنني لم أفهمه، كان يُمسك في يدِه ورقة وكان ينظر إليها بتمعُّن.. بعد لحظات استرجعت طاقتي فقلت له:

- أين أمي؟

- في الغرفة المجاورة، إنها ترتاح قليلًا.

- اطلُب أبي.

- صغيرتي لا تخافي أنا الطبيب «مايكل» إخوتك ووالدك نائمون الآن، أنتِ ما زلتِ مُتعبة، لذا أريد منكِ أن ترتاحي مثلهم، وغدًا سأجعلك تقابلين أهلك.

كنت خائفة ومشتتة جدًّا ولم أستطع الحراك لذا أصغيت لكلام صاحب القناع.. لقد أخرجَ من جيبِه شيئًا يبدو مثل الإبرة لكنها تبدو أطول من إبرة خياطة أمي.. آه أنت تؤلمني.. آه.. لن أُحاسبك على هذا اليوم يا حارسي، فكل ما أحتاجه الآن نومٌ طويل.

في الغد استيقظت، فتحتُ عينيَّ بصعوبةٍ.. كنتُ ألمح الأشخاص لكنِّي لا ألاحظ ملامحهم جيدًّا، وجدتُ أبي يمسح على شعري بلطفٍ:

- كيف حالكِ يوروشيل؟

- أين كنتَ بالأمس؟ لقد حلمتُ حلمًا جميلًا جدًّا، أنا الأميرة النائمة يا أبي، هل تصدق هذا؟

- بالتأكيد أنتِ أميرة، كيف تشعرين حبيبتي، هل يؤلمك شيء ما؟ هل...

قاطعته أمي حيث دخلت الغرفة مفزوعة من أمرٍ ما وركضت نحوي قائلة:

- «يوروشيل»، تحركي انهضي هيا حبيبتي.

- يكفي هذا يا صفاء، إنها متعبة.

- «ربيع» أرجوك قل إن كلام الطبيب غير صحيح.

- كلامه واضح عزيزتي.

- لكنها لم تستيقظ إلا منذ قليل، فكيف عرف هذا؟

- لو سمحتم حافظوا على الهدوء، أنتم في مشفى.

- لـمَ كل هذا الصُّراخ؟ أنـا الأميرة النائمة فلم الغضب؟ ربما أمي لم تعجبها الشخصية.

أمسكَ أبي ذراع أمي وأخرجها من الغرفة في صبر..

الْتفتُّ فوجدت «چيمي» أمامي، وضحت الرؤية هذه المرة واستطعت أن ألاحظ ملامحه، ابتسمت:

- ما به وجهك؟

تقدَّم نحوي:

- أنا أعتذر بخصوص ما حدث.

- لـمَ تعتذر؟ لقد أمضينا يومًا جميلًا جدًّا مع بعضنا.. أين چوليا يا تُرى؟

- چوليا الآن متعبة من رحلتنا.. لا تقلقي عليها.

- أخي هل تعلم، لقد تحولت إلى أميرة بالأمس، لكن أمي لم يعجبها هذا، لماذا يا ترى؟

- لأن الأميرة النائمة عليها أن تبقى نائمة.

- حتى في نهاية القصة أيضًا؟

- لا أعلم يوروشيل، لكن عليكِ أن تتقيدي بالأحداث وتنتظري حتَّى يأتي منقذك.

دخلت «چوليا» الغرفة ونظرت إليَّ بتمعن ثم قالت:

- يوروشيل حاولي تحريك أصابع قدمك.

- اتركيها، «چوليا» لا تزعجيها.

- اخرس أنت.. لقد قالت أمي أن يوروشيل صارت مُقعدة.

- ماذا يعني مُقعَدة؟

احتضنتني قائلة:

- أتعلمين؟ ستركبين كرسيًّا متحركًا لن تفعلي شيئًا منذ الآن حبيبتي.. ستتحررين أخيرًا من أعمال البيت.

- كفى چوليا.. إنها في الخامسة من عمرها ولم تأمرها أمي بشيءٍ من قبل.

- أووه لا..

الْتفتُّ نحو «چيمي»:

- لا يا جيمي، أمي دومًا تطلب مني أن أُساعدها في تحضير المائدة قبل عودة أبي إلى البيت.. إنه عملٌ شاق.

هل حقًّا سأركب على الكرسي الذي به عجلات؟ سألعب بالكرسي وسأكون أميرة نائمة حقيقية، الْتفتُّ إلى چوليا فوجدتها غاضبة.. لقد حاولت أختي إخفاء هذا لكنها لم تتحمل،

فخرجت من الغرفة.

هنا وبعد كل ما حصل تأكدت أن كل شيءٍ سيتغير وأنَّ طريقي نحو الوصول إلى تلك النهاية التي كان أبي يتكلم عنها ذات يوم مع إخوتي؛ قد صار طويلًا جدًّا مع الأسف.

مرَّت الأيام وما زلت في حالة صدمة، كان كل شيء بالنسبة لي كابوسًا لا بد لي من محاربته كي أستطيع المشي ثانيةً.

* * *

فهمت مع مرور الأيام أن صاحب القناع ليس إلا طبيبًا مختص، وأنني لم أكن الأميرة النائمة بل طفلة مريضة على فراشٍ أبيض، أما الآخرون فقد استعادوا عافيتهم رويدًا، عاد كل شيء إلى مكانه تقريبًا، ما عدا نفسية أخي «چيمي» الذي جعل يوم ميلاده يومًا للتَّرحم على طفولتي الضائعة بين جدران بيتنا القديم على كرسيٍّ متحرك عتيق، فكان هذا الكرسي لشيخ كبير أفنى حياته في تقديم يد المساعدة لكل مسكين.. حزنتُ عليه كثيرًا، فقد تركه أولاده وحيدًا يقاوم المرض بعد أن أفصح لهم أن كل ممتلكاته، تتمثل في بيت جدِّه الصغير الذي لا سقف له..

فكروا في قصته أصدقائي، أرجو أن تفهموا المغزى.

* * *

لم يستطع أبي فعل أي شيء إلا أن يحمد الله على عافيتنا جميعًا، لكنه لم يخفِ انشغاله بالمصيبة الكبرى، وهي ما حلَّ بسيارة العم «توماس»، ومع أنَّ أبي لم يكن يود أن نراه في

حـالٍ سـيئة، إلا أن صراحته وصموده وأمله فـي أنَّ الحياة جميلة فقـط حينما نسعى لنرى ذلك الجمال؛ قرر أن يجمعنا كلنا حول مائدة عشاء بسيطة، فعائلتنا عائلة ديمقراطية، يمكن لأي فرد منهـا أن يشـارك الآخـر برأيه، كنـا نفعل هذا كل أسـبوع يوم السبت، حيث نجتمع ونتناقش ونتبادل أطراف الحديث عن كل صغيرة وكبيـرة.. كان كلٌّ منَّا يعترف بذنبه تجاه الآخر، ومن بيـن كل تلك الاعترافات أجد أن اعتراف «چوليا» بفعلتها حينما كانت في الحادية عشـرة من عمرها، يجعلها هي الأجمل، إنها حقًّا شجاعة، لقد استطاعت أن تنظر في عينَي والدي وتصارحه أنهـا قـد أخذت بعـض النقود مـن حصَّالة مدخراته؛ مـن أجل أن تشتري البالونات لإحدى صديقاتها.

* * *

قالت «چوليا» يومها إنها لم تتعمد ذلك وأنها قد كانت مجبرة لأن الفتاة كانت في المشفى وكان الأخريات ذاهبات لزيارتها، ولأن أمـي لـن تسمح لها بقطـع كل تلك المسافة مـن القرية إلى المدينـة؛ اشـترت بالونًـا لصديقتهـا وأوصـت إحـدى الزميـلات بتقديمه لها نيابةً عنها، حتى تعلم حجم حبها لها وأنها لم تنسها، لم أكن أفهم والدي حينها فقد وبَّخها كثيرًا وحرمها من اللعب أيضًا، اعتقدت أنه هو «كاسـبر» في رسوم «ريمي»، لكني مع مـرور السنين وكلمـا تذكـرت الموقف أجد أنـه أبٌ حكيم، وربمـا يكـون هو نفسـه العم «فيتالـس» الذي يختلـف تمامًا عن «كاسبر»، ولولاه لما كنت الآن أكتب لكم قصتي.

انتظروا لم أبدأ بعد..

* * *

جمع أبي العائلة يوم الخميس على غير عادته وقال لأول مرة أنه بحاجة إلى المال، وأن عمله موظف في محطة القطار لم يقدِّم له دخلًا جيدًا ليطعمنا أو يعتني بنا.

- ما هذا أيها الكبار هل كل حياتكم مبنية على الأموال؟ سنكتشف هذا معًا..

قال أبي بكل خجل أنه لن يستطيع أن يُسكِت جوعنا أو أن يسدد ثمن تصليح سيارة السيد «توماس» ما دام يعمل في هذه القرية شِبه النائية، أُحبط الكل بعد سماعه أحوال وضعنا المادي المتأزم، لقد كنا مع حاجتنا أسرة متماسكة، لم يشْكُ أبي يومًا من حاجته إلى المال..

* * *

كنت أستمع لكلمات والدي لكنني لم أفهم منها شيئًا، كنت طفلة في الخامسة فقدَت قدرتها على الإحساس بقدميها في حادث مروع بسيارة رجل الكل يشهد على جشعه.. نعم قصة اعتيادية جداً، فكلٌ منَّا له ابتلاء يختبر الله به صبرنا.. أن تكون مُقعدًا أو عاجزًا أمر يتمناه بعضنا، نعم، بعضنا يظن أن شفقة الناس على عجزك أمر جميل وسيجعل الكل يحبك فور دخولك لعالم جديد.. الأمر صعب جداً، من ناحية العجز ومن ناحية الشفقة، لماذا تتمنى شيئًا أكرمك الله بعدم وجوده فيك؟

أنت لم تفهم قصدي أليس كذلك؟

حسنًا أكمل القراءة إذن..

* * *

ومع سني الصغيرة كان لدي إحساس مرير وشعرت داخلي بالألم الشديد جدًّا ، سأخبركم شيئًا ، كنت أحب أن أمرض ليهتم بي الجميع ، كنت أحب المرض البسيط الذي يبقيني داخل الفراش حتى تأتي أمي كل عشر دقائق لتتفقدني وتحنو عليَّ أكثر من أي وقت آخر ، أحببت المرض وطعم الدواء المُر في سبيل أن أشعر باهتمام من حولي ، فأنا مدللة أسرتي.

أصدقاء «أمل بلا عنوان» عالمنا يكبر بالمحبة ويرتسم بالنجاح فكيف يتحقق نجاحنا يا ترى؟

وهل للدافع حقًّا أهمية في جعل النجاح حليفنا؟

الحياة عبارة عن متاهات وتعرجات بالنسبة لبعضنا ، ومفترق طرق يتفرق إلى دروب ضيقة يصعب الاختيار بينها بالمسبة للبعض الآخر..

أعتقد شخصيًّا أن لكلٍّ منَّا طابع حياة مختلف فلكل ظروف ، ولكل أسلوب لكن الاحترام هو الأهم من أجل الوصول إلى ما نريد..

ما هو دافعكم لهذه المرحلة التي تجتازونها الآن يا ترى؟

وهل سيحقق حلمكم يا ترى؟

قال مايكل ديل: هناك الكثير من الأشياء التي يمكن لها

أن تصنع لك النجاح، وأولها ألّا تفعل الأشياء التي تحبها، بل تفعل الأشياء التي يمكن لها أن تقودك إلى النجاح.

* * *

من أجل البقاء

ومن أجل البقاء وبعد سنة كاملة استطاع أبي أن يدبر وظيفة في المدينة الكبيرة بعدما اتفق مع السيد «توماس» الذي أبهرنا صدره الرحب، ومفاجأته اللامتناهية وخاصة صبره الكبير علينا، فكان أبي يبعث له كل شهر ظرفًا فيه مبلغ من المال حتى دفع له مستحقاته، ثم رحلنا من القرية الصغيرة إلى المدينة الكبيرة، حيث بدأ كلُّ فردٍ منَّا حياة جديدة بمشوارٍ جديد.

أبي ولأنه شخص مثقف استطاع أن يحصل على عمل في شركة راقية براتب محترم، أمي أيضًا نالت عملًا في أحد المتاجر المعروفة في تلك المدينة، أما أخي وأختي فقد كانا ينتظران الدخول المدرسي بفارغ الصبر على أمل الحصول على صداقات جديدة، وأنا الأسعد بينهم، وأخيرًا سأعيش في بيت كبير كقصر الأميرة.

هذه المدينة جميلة جدًّا، في الصباح تكثر الحركة بها كأنها منزل للنمل، وفي الليل أضواؤها الجميلة تضع أمامك لوحة فنية تجعلك تُبحر في دنيا الخيال.

مبانيها شاهقة ومحلاتها مملوءة ببضائع يتسابق الناس لشرائها والانتفاع بها، بيوتها جميلة والسيارات المصفوفة أمام كل بيت أجمل..

هذه هي الحياة، ما رأيكم أنتم؟

حياتنا القديمة

جاء موعد الدخول المدرسي وكان هذا أول يوم لي في المدرسة، حيث يوجد كثير من الأطفال في مثل سني، كانت ملابسهم أجمل من ملابسي، وأحذيتهم أروع من التي معي، لكن مع هذا استطعت أن أنال محبة زملائي.

وتعرفت على أصدقاء جُدد.. حقيقةً لم يكن لدي أصدقاء لأني أصغر مَن بالقرية، كان القرويون أناسًا بُسطاء جدًّا، كل حياتهم تتمحور حول جلب لقمة العيش، لم يعرفوا للتَّرف أو ما شابه من أشياء طريقًا أبدًا، أحترم أولئك الناس حقًّا.. تحياتي لهم.

استطعت التأقلم منذ يومي الأول، أما إخوتي فقد كانوا مثلي سعداء بحياتنا الجديدة.

كنا نعيش في قرية لا يقطنها إلا كبار السن تقريبًا، ولا يزورها أحد أيام الشتاء، كان چيمي وچوليا يذهبان إلى مدرسةٍ بعيدة برفقة طفلين من أحفاد العم المتوفي مالك الكرسي المتحرك، لم أكن أحب «نغَم» فقد كانت تبدو كالمومياء ونفس الشيء بالنسبة إلى «رائف».. صدقوني لو أكملتم معهم يومًا واحدًا أو ربما نصف يوم ستتأكدون من كلامي، لا يضحكان ولا يجيدان المزاح ولا يسمح لهما والدهما باللعب أو الخروج من البيت ما عدا الدراسة، كان يؤمن السيد «معتز» أن

الحياة عبارة عن نقود، ومن أجل النقود لا بد من الدراسة.

فكـروا في هـذه المسألة أيضًا، لقد تخلى عن والده من دون رحمة؛ لأنه أدرك ألَّا ممتلكات له يرثها من بعده..

فكيف ستنتهي قصة هذا الجشع؟

* * *

فـي الصيف يتوافد السياح إلى قريتنـا لجمال مناظرها كما تزورها بعض الشخصيات المهمة كالسيد «توماس» للاستجمام.

نسيـتُ أن أخبركـم عن جدتي «نانسي» وهـي المرأة الحنونة التـي تولَّت رعاية أمي، وتعيـش في نفس المدينة التي نعيش فيها الآن لكـن بالجهـة الجنوبيـة، ولهـا منـزل جميل تقطـن فيه مع خالـي، أما عائلة أبي فقد رحلوا عن القرية منذ زمنٍ إلى بلد آخر ولم يبقَ منهم غير جدي الذي توفي وأنا في سن الثالثة، وجدتي.. أبي نفسه لا يعرفها، لقد توفيت بعد ولادته.

الأسـرة أول حـب في حيـاة الإنسـان، والحـب الأول يستحيل نسيانه.

العجيـب فـي الأم أنها دائمًا مع أبنائها مع كل ما يحدثونه من مصائب وشغب.. كم مضى عن آخر هدية قدمتها لأمك يا ترى؟

ما رأيك برسالة جميلة تقدمها لها بعد إكمالك لهذا الجزء؟

أبحِر في دنيا الخيال صديقي..

الأب وهـو الـذي لن يستطيـع أحد وصفـه، الأب هو الأمل هو البطـل الـذي حارب من أجل ألَّا يعيش أطفاله في الذل، هو الذي

حـارب من أجل الكرامة.. هـل تستطيعون رد ثلاث أرباع ما فعله من أجلكم يا ترى؟

ربما قُبلة صغيرة على جبينه، يهون تعب اليوم..

هل للأسرة دور في بناء حياة سعيدة للطفل حسب تجربتكم؟

اكتبـوا ما تريدون وشـاركوه معي، سـيأتي يـوم نلتقي فيه لتبهروني بمشاركاتكم..

من هو أكثر فرد تشعرون معه بالراحة في الأسرة؟

* * *

ألم من الطفولة

حياة اعتيادية نعيشها بشكل طبيعي، انزاح همُّ تسديد دَين السيارة عن والدي بعد ثلاث سنوات من بدء عمله الجديد، لم تتغير حياتنا في المدينة خلال هذه السنوات الثلاث، فقد تعودنا على البساطة والابتعاد عن المبالغة، فلم نكن نأكل أكثر من حاجتنا، ولم نكن نشتري ملابسًا لا يتسع لها المكان داخل دولاب أغراضنا، فاجأنا العم «توماس» بصبره، وصرت أنظر إليه باحترام أكبر.. أعتقد صراحةً أنه ليس من الضروري أن نحكم على شخصية إنسان من خلال حكايات أُناس آخرين عنه، أو تجربتهم هم مع هذه الشخصية.. لقد أخطأنا بحق العم «توماس» حقًّا، علينا النظر له بمنظور آخر إيجابي أكثر.

هل تعلمتم الدرس؟

* * *

مرت الأعوام وفي كل سنة نسعى لبناء أنفسنا حتى نصير أفضل من السنة التي قبلها، وصرت في الثالثة عشرة من عمري، وغيرنا البيت فانتقلنا إلى الجهة الجنوبية حيث تسكن جدتي نانسي، وكان هذا التغيير من أجل عمل والدي الجديد المتمثل في مدير فرع من فروع نفس الشركة التي كان يعمل بها في الجهة الشمالية، وقد ملأت السعادة قلبي أكثر حينما علمت أن أبي يسعى إلى جمع المال لبدء علاجي، فمع كل هذا الاهتمام

الـذي عرفتـه في صغـري، نسيت كيفيـة الاعتمـاد على نفسي واعتدتُ على حياة التمرد واستعمال ضمير الأمر الذي يسعدني، فصرتُ فتاةً قاسـية لا تحتمل سـماع كلمات الشفقة، كل هذه الأحاسـيس اللئيمة اجتمعـت داخلي بعد حادثتي مـع «كاترين» ابنـة معلمـة الرياضيات في الصـف الثالث، كنت مـن مُحبَّاتها وممن يُعجبهن شَـعرها الأشـقر الذهبي، ولون عيونها الذي يشبه لـون البحـر الأزرق الصافـي، كانـت بيضـاء البشـرة كبياض الثلج، وملامحها توحي بحبها وطيبتها، كنت أنتظر فقط اليوم الذي تحادثني فيه، كنت أتمنى أن تصير صديقتي، أو أن تلقي السلام عليَّ يومًا ما..

حدث هذا بالفعل.. كنت أجلس بمفردي في الصف أحاول حل واجـب الرياضيات، تقدمَت نحوي وأعطتني ورقة مكتوب عليها الحل، سـعدتُ باهتمامها لكني لم أقبـل، وددتُ أن أعتمد على نفسي في حل ما تبقى من أسئلة؛ لأنني قد بذلت مجهودًا بمفردي وسـعدتْ المُعلمة بنتائج عملي، لكن إصرارها الكبير وجملتها لي:

- يوروشيل اقبلي الحل كعربون صداقة بيني وبينك عزيزتي.

جعلانـي أقبل مـن دون تفكير.. خشـيتُ أن تغضب صديقتي الجديدة عليّ.

انتهـى وقت الاسـتراحة ودخل التلاميـذ ومعهـم المعلمة التي طلبـت منَّا فتـح دفاترنا على صفحة حل الواجـب الذي قدمته لنا ولـم نكمل تصحيحـه في المرة السابقة، وصلـت المعلمة لتلقي نظرة على واجب «كاترين» فتعجَّب الجميع من أنها لم تقم بحله:

- كاترين كيف لم تحليه؟ لقد سألتكِ بالأمس وقلتِ إنه سهل يا ابنتي.

- لقد حللته لكن يوروشيل طلبت المساعدة فأعطيتها إياه يا أمي.

الْتفتَ الجميع إليَّ وملامح التعجب تعلو وجوههم.

قالت «آريا»:

- يوروشيل! لَم تفعل هذا معي يومًا، مع أني صديقتها المُقربة، فكيف تأخذ واجبكِ أنتِ وتطلب مساعدتك؟

يوروشيل، تكلمي لماذا لم تطلبي مني أنا أن أفعل هذا؟

لم أستطع الإجابة أحسستُ أن قِطًّا قد أكل لساني، خاصةً حينما سمعت خطوات المعلمة القادمة نحوي غاضبةً:

- يوروشيل، ارفعي رأسك وانظري في عيني، هل انتهزتِ طيبة كاترين من أجل مصلحتك؟

- مستحيل، الحقيقة يا...

- أمي صدقيني لقد أتيتُ إلى القسم لأني رأيتها وحدها فظننت أن معنوياتها محبطة، لقد أتيت لأشجعها، فأخذَت تبكي وتترجاني لأعطيها الحل، لكني رفضت وأكدت لها أنكِ طيبة وستتفهمينها لو كان الواجب صعبًا.

أخذَت المعلمة ورقة الحل وتأملتها:

- نعم، إنه خط كاترين وهذا واجبها، وهذه الورقة من دفترها الملون.. يوروشيل ما هذا الذي فعلتيه؟ لو أتيتِ وكلمتِني على انفراد وأخبرتِني عن أسباب عدم حلّك الواجب، لكان هذا

أفضل من استغلال حالتكِ في سبيل النجاح ورفع علاماتك، تعلمين أن الجميع يحبك لقد أخطأتِ ولا بد من الاعتذار على ما تسبَّبتِ من ألم لصديقتك «كاترين» وزملائك، لأنكِ تلاعبتِ بمشاعر إنسان مقابل مصالحك.

لا أريد وصف ما كان داخلي حينها، أردت الصراخ عليها وتمزيقها وتقطيعها وحتى اقتلاع عينيها، كما كانت تقتلع أمي الخضروات من جذورها في القرية لتطبخ لنا، لكن خُضَر أمي وكاترين لا يمكن أن يكونا في مرتبة واحدة..

أمسكت اللوح وكتبت:

- أنا آسفة، لن أعيدها.

ورفعته بانتصار لأنني أحسستُ كوني أفضل منها بحقارة ما فعلته، ومسحتُ ما في لوحي وابتسمت ببراءةٍ بالغة، صفَّقت المُعلمة مشجِّعةً لي:

- يوروشيل، سيكون كل شيء على ما يرام، وأنتم يا أعزائي لا بد من أن تساعدوا من هو بحاجة إليكم، لكن ساعدوه على فعل الخير وليس الغش، لنبدأ درسنا الآن.

وأثناء الدرس كنت أسمع همساتهم وكلماتهم عن فتاةٍ مقرفة، قالوا إنها خدعتهم وتلاعبت بهم.. يوروشيل، إنهم يتحدثون عنكِ أيتها الساذجة، أنتِ حقًّا غبية..

انتهى درس اليوم، وجمع الكل أدواتهم للعودة إلى البيت، وعند مرورهم أمامي كانوا ينظرون إليَّ بصمتٍ زائف، كأني إنسانة جديدة ويوروشيل الشريرة كانت تختبئ داخلها -حسب

اعتقادهـم- تحت قنـاع الطيبة والصـدق، ظنُّونـي خائنة فجعلوا منـي نكـرة بينهـم وإنسانـة لا تنتمي إليهـم.. حتـى المعلمة التي أغلقـت الموضـوع وجعلت الأمر منسي، كان يبـدو من معاملتها لـي أنها كرهتني خاصـةً أن ابنتها هي المظلومة، قامت معلمتي بنشـر الخبـر بين أعضاء مجلس الإدارة، وصـار الكل ينفر منِّي لمجـرد أن يراني من بعيـد، اكتأبت وشـعرت بالضيق، ما هذا الـذي يحـدث لي في سـن الطفولة؟ هـل حقًّا سـأكون قوية بعد هـذه الطعنة الغادرة التي دخلت قلبي مباشـرة، إنها أول مرة منذ أن صـرت مُقعـدة يعاملني فيها الناس بهذا الخُبث، ألم يقولوا أن الطفولـة بريئة، عن أيِّ بـراءةٍ يتحدثون! وهـذه الطفلة أخبثُ مَن عرفت؟

وفـي هذا الحـادث تأزَّم وضعي ولم أتكلـم يومها مع أحد من عائلتـي وحتى «آريـا» صديقتي التي طلبت مسوِّغًـا لِمَا فعلته، لم أستطع أن أجيبها، كنت أريد راحة طويلة، كنت أريد بشدة لو تتوقـف حياتي في تلك اللحظـة، أو أن يحذف ذلك المقطع الذي كـان الجميع فيه يلومني على شـيء لم أفعله، وددت وبشـدة أن أبكـي.. لا بل أصرخ، لكنني لم أسـتطع التعبيـر عمَّا بداخلي، فقررت السكوت بكل بساطة.

* * *

فـي الغـد وفـي درس اللغـة الأجنبيـة، قامـت المعلمـة بتغيير مكانـي، شـعرت حينهـا بحقدها علـيَّ، فهمتها وفهمـتُ كُره زملائي لي، لقد فهموا أنني أردت اسـتغلال طيبتهم ومحبتهم لي

مـن أجل الوصول إلى تحقيق ما أريد ، أعلم أنني كنت مخطئة ، وكان لا بد لي من الدفاع عن نفسي، لكن أتعلمون؟ لو شاهدتم كيـف أنَّ حبهم لي وأملهم بصداقتـي ووفاؤهم لأيامنا السابقة ، قد تحطَّم في ثانيةٍ واحدة؛ كنتم ستعذرونني بالتأكيد.

تغيـر مكانـي ليصيـر آخـر الصف لـم أسـتطع الاعتراض، وتعرفـون السبـب، لذا قررت وبـكل لا مبـالاة أن أكمل أيامي على طريقتي الجديدة.

لا أكلـم أحـدًا غير عائلتـي، ولا أخرج من البيـت إلا معهم، أذهب للمدرسـة للدراسـة فقط، ولن أكوِّن صداقات جديدة مع أحد.

نعـم هذه شـروط تحقيق شـعاري «أمل بلا عنـوان»، وبه ومن خلاله قررت الاستمرار في بَدء طريق لم يكتمل بعد.

* * *

طفولة تبخرت

أتذكر جيدًا تلك الأيام كأنها كانت بالأمس، حاول «چيمي» لفت انتباهي بإلقاء الكرة نحوي متعمِّدًا، كان يود أن يكلمني بخصوص ما حدث، لكني لم أستطع التبرير، فكلما تذكرت الموقف أشعر بدموع تودّ أن تنهمر، كنت قد قررت أن أبقى صامدة وألَّا أذرف دمعةً واحدة على ما فعلوه بي، كلامهم جرحني وما زلت أتألم غيضًا وأتجرع سِمًّا عند تذكُّره.. أدرتُ عجلاتي وذهبت بعيدًا إلى زاوية من زوايا الساحة الكبيرة متجاهلة كل هذا الحطام الذي يحيط بي.

بعد أسبوع كامل، طلب أعضاء إدارة المدرسة أن يستقبلوا أبي بناءً على شكاوى المدرسين من تصرفاتي وبرودة أعصابي، إضافةً إلى تراجع علاماتي، لم أفهم إلى الآن ما الذي أخبروا أبي به، فقد عاد إلى البيت غاضبًا حتى أنه ركل كرسيِّي المتحرك الجديد الذي كان يرتاح من حملي طوال النهار أمام غرفة الضيوف بسببه، وقد تعب لأجل جمع نقود ثمنه كاملًا، سقط الكرسي وسقط قلبي معه من شدة الفزع، بعد لحظات سمعت صوت همسات والدي وهو يتحدث مع أمي، فلم يكن باستطاعتي سماع الحوار جيدًا فحبوت من غرفة الضيوف إلى المطبخ بصعوبة، لأسمع:

- قصَّرتُ معها بماذا؟ أنفقتُ كل ما لدي لإسعادها وجعل

ضحكتها ترتسم على ثغرها بعدما حدث لها في سن صغيرة.

- اهدأ إنها من ذوي الاحتياجات الخاصة، ولا بد من تقبُّل هذا.

- أنا أتقبَّل كل شيء ما عدا أن تكون ابنتي ضعيفة الشخصية، إنها تنزوي بنفسها آخِر الصَّف، وترفض اللعب مع زملائها، مع أنهم يختارون ألعابًا تناسب وضعها.

لم أستطع تحمُّل كلمات أبي، لم أفهم أيضًا بما أخبروه عني، أيعقل أنهم لم يحدثوه عن «كاترين» لأنهم خشوا عليَّ من غضبه؟ لكنهم حكوا له قصة ناقصة، لماذا أخبروه أنني أنزوي بنفسي ولا ألعب مع أحد؟ هل طلب مني أحد اللعب معه بعد ذلك الموقف أصلًا!

الجميع كانوا يثرثرون عن يوروشيل الاستغلالية، جميع من أتوا لي لم يكن مرادهم إلا أن يعرفوا مني المزيد عمَّا دار بيني وبين كاترين حتى تعطيني حل الواجب، هل هذه هي الطفولة وبراءتها حقًّا؟

قلت بصوت مبحوح:

- يكفي هذا، مللتُ انتقادكم لي ولشخصيتي ولكلِّ شيء أفعله.

- يوروشيل، كيف حبَوتِ كل هذه المسافة عليك أن ترتاحي.

- كفى يا أمي أنا في سن العاشرة وما زلت أجر كرسيًّا

ميزتـه الوحيـدة أنه متطور ولا يجعلني أمشـي، بينمـا مَن هم في مثل عمري يركضون في الحدائق.

- يوروشيل اذهبي إلى غرفتك لا أريد سماع صوتك.

- سـأذهب حينما أسـتطيع المشي، لو سـمحت قل: احْبِ إلى غرفتك.

- لقـد تلَفت أعصابي من كلام أسـاتذتك عنكِ، لا ينقصني سماع عتابك.

- بالتأكيد فأنتَ لا تبالي بما أريد إنما ما يريده الناس مني، هـل أنت مدرك أن هنـاك حلقة ناقصة بالموضـوع؟! لم تدرك أن ابنتَك لا تضعف حتى مع كل تلك الضربات.

- والدك لا يقصد هذا، ما زلتِ صغيرة على أن تفهميه.

- نعم صغيرة، لكنني تقبَّلتُ قدري أفضل منكم، اتركوني أعيش كما أريد، لا أريد أن أخالط أحدًا ولا أن أكوِّن صداقات مصطنعة.

- ماذا عن دراستك؟

- أبـي، اتركني أتأقلم مع حياتي وشـعوري بالوحدة، أعدُك بتحسيـن علاماتـي، لكـن لا تجبرنـي علـى الحديث مـع مَن لا يفهمني.

ساعدتني أمي على الذهاب إلى غرفتي وتركتني مستلقية على الفراش وطلبت منِّي أن أحاول النوم ووعدتني بأنها ستكلم أبي.

- لا أصدق أنها كبرت وصارت تكلمني بهذه الطريقة.

- إنهـا واعيـة تعلم ما ترغـب وتسعى لتحقيقـه، اتركها على

راحتها فقد وعدتك بالاجتهاد أكثر.. أظن أنها تأثرت بإحدى الرسوم.

- لكن أساتذتها غاضبون.

- ليغضبوا أكثر إذن، ابنتي ناضجة ولا خوف عليها ما زال طريقها طويلاً، لكن أتوقع منها الكثير مستقبلاً، لا تنسى أن عزيمتها كبيرة.

- أرجو أن تدعميني، فقد صرت عصبيًّا.

- لقد تجاوزنا الكثير من المشاكل التي كان يسببها «جوليا» و«چيمي»، لا تقلق فأنا فخورة بها لأنها تكلمت وعبَّرت عن رأيها بكل صمود.

- إنها كنزنا الذي لا بد من المحافظة عليه، لكنها مقعدة ليست مثل «جوليا» و«چيمي».

- لقد تغلَّبنا سابقًا على دفع تكاليف المشفى، وسيارة «توماس»، وأجرة هذا البيت، ودفع ثمن الكرسي.

- لكننا لم ندفع دين السيد «چين».

- سندفعه، سآخذ راتبي بعد أسبوع وسأشتري متطلبات البيت وأدفع أجرته لأسبوعين، ونتدبر أمورنا بعد هذا، أما راتبك أنتَ فأعطِه كاملاً للسيد «چين» وانْهِ حسابك معه.

- المهم أن تتحسن أحوالنا، فقد أخافتني يوروشيل بكلامها وحِدَّة نقاشها.

- اتركها للأيام، ستعتاد وضعها كما قالت وستنجح.

- أتمنى هذا.. أين الأولاد؟

- چيمي سيذهب لنادي الكرة للتدريب، وچوليا ستبدأ تعلُّم الطَّبخ عند والدة صديقتها وجارتنا في الحي السيدة «صوفي».

- الحمد لله، سأغفو قليلًا أنا متعب.

- على راحتك.

* * *

كان هذا حوار أبي وأمي في الغرفة المجاورة بينما كنت أنا أتظاهر بالنوم، لا داعي لوصف حالتي، فقد سعِدت لثقة أمي بي، وخجلتُ لأنني حدَّثتُ أبي بهذا الأسلوب.

في حياة كل فردٍ منَّا أعزائي مصاعب قد تكون بالنسبة لغيره تافهة، ولكلٍّ منَّا ردَّة فعل عصبية على أسباب اعتيادية يراها بعضنا لا تحتاج إلى الصراخ أو الغضب أبدًا، لكننا في واقعنا لا نتفهَّم بعضنا ولا نترك مكانًا للتفكير بظروف غيرنا، إنما نتدخل فيما لا يعنينا ويجرح بعضنا البعض بأقسى الكلام والفعل، لذا قد يتسبب هذا في انطواء البعض، أو بتفضيل السكوت على مشاركة الرأي، أو ما في الخاطر عند البعض الآخر، قد يرى هؤلاء الناس أن الحياة معقدة وكلها سلبية.

* * *

برأيكم أنتم..

هل اختار هؤلاء الانطواء، أم أن محيطهم هو مَن أجبرهم على ذلك؟

* * *

هذه أنا

مضت الأيام بعدها وصرتُ إنسانة أخرى استطاعت استيعاب أنها طفلة لا بد من الوثوق بعائلتها فقط، استطعت وبعد مرور شهرين تحصيل نتائج ممتازة في الدراسة وصرت الأولى على الصف، وهذا ما عجبَ له الجميع؛ لأنه لم يكن متوقعًا، وأخذ الكل يسأل كيف لي أن أنجح بتفوق، وأنا المجنونة الاستغلالية، التي لا تلعب مع أحد وتظل صامتة.

كيف لفتاة تتجاهل شرح المعلمة أن تنجح؟

كيف لها أن تصير الأولى، وهي التي لا ترفع نظرها عن الأرض؟

كيف لمغرورة أن تصير الأولى؟

* * *

صراحةً، لقد كنت هكذا أتعامل مع الكل ببرود، صرت أكره الجميع، أحب الوحدة حتى أنني اكتشفت من خلالها موهبتي في الرسم.

أريد أن أصير رسامة ترسل من خلال إبداعاتها شفرات يحلها مَن يملكون شغف التحدي فقط.

فهل سيتحقق هذا؟

صرت الأولى وتفوقت عليهم، كنت أحاول فهْم القليل من

شـرح المدرسـين وأكتب دروسـي بانتظام وصمتٍ تام، ثم أعود إلـى البيت وأفتـح دفاتري وأحاول حل واجباتـي، وعندما يصعب عليَّ سـؤال أتركه للغد حتى أسمع طريقة حله من المعلمة، دون النظـر إلى وجهها، فقد اعتدتُ سـماع مـا يطلَب منِّي فقط، ومع مـرور الأيام وتفوقي صـرت أثق بنفسي أكثـر لكنني في نفس الوقـت أخشـى المواجهـة وأخاف النظـر في عيـون الآخرين وأنا أتكلم معهم.

* * *

وقتها أردت بشـدة لو أغير المدرسـة ليُنسَى الموضوع، لكن مع الأسـف لم أسـتطع؛ لأني أعلم أنَّ تكاليف النَّقل إلى مدرسـة أخرى ستكون باهظة على والدي..

تذكروا أن على طلباتنا أن تكون معقولة، هل هذا مفهوم؟

* * *

عندمـا نتكلـم عن الحياة بشـكل عـام نجد أن فيها أشـياء جميلـة مختلطة بذكريات الماضي البشـعة.. في الحياة لا بد أن تبتسم مع ألمك حتى تبقى، لا بد أن تخفي أسرارك وتحفظها.. لا بد أن ترسم أهدافك وأحلامك داخل عقلك أولًا ثم تجسدها على أرض الواقع لتتغلب على مخاوفك.

فـي هـذه الحياة إن كثرت عليك الشـدائد فاعلـم أن اللّه قد ابتلاك لأنه يحبك، لا تضعف.. بل حارب وقاتل ودافع عن نفسك، لا تسكت عن الحق فالساكت عن الحق شيطان أخرس، أَخرِج كل ما بداخلك..

لن تندم ما دمتَ تدافع عن الحق.

* * *

لا تخجل من إظهار مواهبك، احترم الكبير واعطف على الصغير، تكلم بأدب ولا تقلل من احترام أي إنسان مهما فعل، اترك صورة طيبة عن نفسك ولا تترك أحدًا يشير بإصبعه إليك ليقول هذا إنسان غير صالح، فلتدع الجميع يقدِّرك أنت، يقدّار أحلامك وطموحاتك حتى لو كانت صغيرة، هذه حياتك أنت لا تنسى، حاول فقط ألَّا تفقد أُناسًا أحببتهم من أجل آخرين لا يحبونك.. كن أنت ولا تكن شخص آخر.

* * *

قناع القوة

انتقلنا إلى بيت جديد كما أخبرتكم في الضفة الجنوبية، لكنني هذه المرة لم أكن متحمسة للتعرُّف إلى أحد، فقد صارت الوحدة دواء لي، لأني استطعت التعامل معها بشكل جيد.. الجميل بالوحدة أنها تترك لك المجال للتشاور مع نفسك.

أكثر ما أعجبني في بيتنا الجديد جدرانه البيضاء التي يسهل الرسم عليها.. رسمت في أول يوم المدينة الشمالية في الليل بأضوائها الملونة، كنت أتمنى لو تسمح لي شريكتي بالغرفة أن أرسم على كل جدار، لكنها رفضت رفضًا قاطعًا؛ لأنها تحب الأشياء الكلاسيكية فقط.. نعم إنها أختي «چوليا».

جيراننا كُثر، وكان من بينهم زملاء لي في الدراسة في مرات عديدة يأتي جيراننا لزيارتنا لإعجابهم بطبخ أمي، وطمعًا في أخذ أسرار الطهي عنها، وأحيانًا من أجل خياطة فساتين وملابس لهم، لكنني بكل الأحوال ومع طيبة هؤلاء الناس، لم أكلم أحدًا، ولم أرغب حتى بالجلوس مع أحد.

أتذكر «شارلوت» وهي زميلة لي في المدرسة، كانت تحب أن تختلط بالجميع لمعرفة أخبارهم وجديدهم وحياتهم الخاصة، كانت تبدو فضولية مضحكة ذات خيال واسع، تتكلم كثيرًا وتطلق أكاذيب عن الآخرين وتهوى ما يسمى نشر الفضائح، تعشق التكلم حول ثروة أبيها رجل الأعمال،

وجديد أمها مصممة الأزياء، لم أكن أفهم تلك الفتاة لأنني لا أحب أن أحكم على أحد دون أن أعرف ظروفه، كنت أُشفق عليها فمع طلاق والديها وتخلي أمها عنها بشكلٍ غير مباشر؛ إلا أنها كانت تفتخر بإنجازات كلَيْهما، وتحب أن تطلع زملاء الدراسة وقت الراحة على جديد الموضة وعالم الأزياء، كانت تبدو قوية لكنها تخفي ضعفها خلف أكاذيب تصدقها وتجعل منها واقعًا، كنت أستمتع بسماع أحاديثها، صراحةً كنت أبقى في الصف فترة الراحة متظاهرة بحل واجباتي برفقة مجموعة من الزميلات ضمنهن هي، كنت أبقى معهن في نفس الطاولة المستديرة، لكن لم أحاول يومًا مشاركتهن الحديث، إنما كنت أكتب وظائفي وكلي آذان صاغية لهن.. أما «شارلوت»، كانت تقف على طاولة مقابلة كممثلة على خشبة المسرح ثم تشرع في سرد آخر الأخبار دون ضجر.

وفي أحد الأيام ومن شدة قهرها، حكت لنا من دون وعي وبكل ألم صعوبة الحياة بين أبوين منفصلين، قالت يومها أنها تشعر نفسها أرجوحة يلعبان بها ويقذفانها في كل لحظة نحو الخطر، قالت بكل أسىً إنه في يوم ما ستنقطع حبال هذه الأرجوحة لتعود لنقطة الصفر ويدهس عليها الجميع.

لقد كنت أشعر بانجذاب كبير لها، وأحيانًا كنت أعجب بها وبشجاعتها لكونها تعيش كما يحلو لها، مع أن جميع صديقاتها يتكلمن عنها بالسوء من وراء ظهرها، كنت أشعر لا بل كان لدي إحساس قوي أن خلف قناع القوة هذا إنسانة لا بد من دعمها لتقف من جديد وتغير من حياتها لتصير أفضل،

خاصةً كذبها وعبارات التعالي التي كانت على لسانها كل يوم.

* * *

أحيانا نعطي قيمة كبيرة لبعض الناس ونمنحهم أكثر بكثير مما يستحقون ومما نتحمله نحن، فنتفاجأ بعد مدة من المعاشرة أن قناعَي الصدق والمحبة قد سقطا وظهر مكانهما العكس تمامًا.. فنُصاب بخيبة الأمل.

* * *

صدمتي الكبرى

فـي أحد الأيام وأنا عائدة من المدرسـة إلى البيت برفقة أخي «چيمي» الذي كان يتولى مرافقتي دائمًا، مررنا على بائع الحلوى وهو شيخ كبير يعيش حياة بسيطة لأقصى درجة، كنت أرى في عينيـه الرجل الذي لا يُهزم، إنما يتابـع لينجح، تركني «چيمي» كالعـادة عند المدخل وتفاجأت به يخرج من المحل بعد أقل من دقيقتين برفقة شـاب يبدو في سـنِّه، ابتسمت له لكنه تجاهلني تمامًا حتى أنني اعتقدت للحظة أنه نسي أمري، وبقيت أحدق به وهو يبتعد مع هذا الشـاب، وللحظـةٍ أخرى ظننته ليس أخي إنما شـبيه له فقط، لـم أعرف ماذا علـيَّ فعله، فقـد تعوَّدنا المجيء إلـى هنـا وإلى هذا المحل يوميًّا بعد خروجي من المدرسـة ليُرفِّه عنِّي قليلًا خاصةً بعد أن كان يلوم نفسه منذ طفولتنا؛ لأن اليوم المشـؤوم كـان يـوم عيد ميلاده، دخلـت المحل فلـم أجد أحدًا غيـر البائع فألقيت التحية وطلبت منه قطعًا من الحلوى بالنعناع، وضعها بكيس ثم عدت إلى البيت وأنا متأكدة أن الذي تجاهلني هو أخي لا غيره، وطول الطريق وأنا أكذب على نفسي بتفاهاتٍ غبية، وأحاول قدر اسـتطاعتي أن أجد ذلـك السبب القوي الذي يخلِّص «چيمي» من وضعه في دائرة الاشتباه التي وضعتها داخلي لأشطب أي إنسان يهينني.

يوروشـيل ربما كان منشـغلًا بأمرٍ مـا، أو ربما حصل له أمر عاجـل، ربما صديقـه المقرب طلب منه الذهـاب معه وخجل من

أن...

لا يعقل لا أبدًا هذا غير ممكن، لو كنت أمشي لقلت لكم أنني قد صرت أركض مسرعة نحو البيت وأعود في أقرب وقت، لكن لا، لقد حررت كرسيِّي بصعوبة بسبب الحجارة التي كانت على الطريق بسبب الإصلاحات، بصعوبة كبيرة جدًّا كبيرة نعم، ووصلت البيت أخيرًا، فتحت الباب ولَيْتني لم أفعل..

* * *

تفاجأت ذلك اليوم، تحطمت وقرَّرتُ قرارًا جديدًا أضفته إلى بنود شعار «أمل بلا عنوان»، لم يغير هذا حياتي فقط.. إنما سيجعلني أمضي للأمام لأعيش وحدي من دون عائلة.

* * *

أريد للحظة فقط أن أوقف قلمي عن كتابة أسطر الرواية وأوجِّه كلماتي إلى كل مَن هم مثلي أو مشابهون لي نفسيًّا أو معنويًّا.

إلى كلِّ مَن فقدَ أمله في الحياة، وكل مَن تحمل الكثير وظن أنه اقترب من هدفه ومراده ثم فاجأته الحياة بشيءٍ جديد لم يكن في الحسبان، إلى كل مَن تحسَّر على حاله، وكل من هو مريض وظن أنه لن يُشفى.. إلى كل إنسان على هذا الكوكب يظن أن الحياة ستتوقف بعد مأساة كبيرة..

تابع القراءة إن أردت فقط، وقبل هذا اختر الطريق الصحيح والدرب الذي سيجعلك كما تريد أنت، وليس كما يريد غيرك..

اقلب الورقة، أكمل القراءة من دون مبالاة.

* * *

لم تعجبك إلى الآن؟ ببساطة انتقدها وأرسل انتقادك لي.

احضِر ورقة وقلم، عبِّر عمَّا تشعر به الآن بعدما وصلت إلى هذا الجزء من الرواية، اكتب ألمك الكبير ومشكلتك العميقة التي جعلتها أنت عائقًا بينك وبين الوصول إلى تحقيق أحلامك، أغمض عينيك وتخيل أنك ستحل هذه المشكلة بعد أن تختار دربك الصحيح.

لا تلعن الكاتبة فهي إنسانة مثلك أرادت أن توصل فكرة إلى قرَّائها، لكن ربما لم تنجح معك أنت بالذات لأنك لست من الفئة التي قصدتها.

تمنَّ لي بعد إغلاق الرواية أيامًا جميلة، وأنا سأكون سعيدة لأنك قرأت روايتي وشاركتني «أمل بلا عنوان».

أغلق الكتاب الذي بين يديك.. لا ترمِه، ربما هناك من يريده، وهو بحاجة أن يمضي بعضًا من الوقت في قراءته.. أما أنت فانسَ محتواه وانسَني أنا..

* * *

أملي الذي ضاع

دخلت البيت بهدوء وبينما أنا أحاول فك وتخليص كرسيي الذي علقَت عجلاته بحزام حقيبتي المدرسية؛ سمعت:

- لم أعد أتحملها يا أمي إنها عبء عليَّ، أُدركُ أن حلمي في ركوب السيارة سبب في جعلها هكذا، لكن ما ذنبي إن كانت متكبرة ومتعالية.. لا أتحمل كلام الناس.

- إنها أختك، هل ستتخلى عنها يا بني؟!، إننا عائلة وسنتغلب على الجميع بقوتنا.

- أعذريني يا أمي وأنا أيضًا لن أتحمل هذا أكثر، أنا في التاسعة عشرة من عمري ويمكنني تدبر أمر سكن بمفردي.

- ماذا؟ هل ستتركين البيت؟

- وأنا أتركه معها يا أمي، صدقيني لم يعد هذا يطاق، الكل يحاسبوننا بسبب نظراتها الباردة ويقولون أن تربيتها ناقصة، قولي واعترفي أنها تسبِّبُ لكِ الإحراج أيضًا، هي حتى لا تستطيع الذهاب إلى الحمام بمفردها، أمي صارحينا أنتِ تتعبين معها، لولا مشاكلها لصِرنا الآن من الأغنياء كلُّ يومٍ تُسقِطُ شيئًا جديدًا.. وتسقط فقط الأشياء التي لم نَقم بتسديد أقساطها بعد، فنضطر أن نشتري نسختين بالتقسيط، ما هذه الحياة؟

وكلما طلبت منها اللعب في الحديقة تخرج الكرة وترميها متعمِّدة في حديقة جارنا، وأنتِ تعلمين كم أن زوجته مزعجة،

وكم تحب أزهارها التي تفسدها كرة يوروشيل يوميًّا.

- ما هذا الذي تقولانه لو سمع والدكما هذا لانهار، إنها أختكما وهي ابنتي، ثم إنني دائمًا ما أقوم بخياطة ملابس السيدة «آسيا» مجانًا.

* * *

- هذه هي المشكلة، أنت تقومين بخياطة كل ملابس جيراننا مجانًا، أو بنصف الثمن لتغطي على أفعال مدللتك الصغيرة.

- أمي حتى القماش، تشترينه بمالكِ الخاص.

- لا، والأجمل من هذا أنهن يخترنَ القماش الباهظ الثمن دائمًا.

- كفاكما، ما عساي أن أفعل؟ فهي ابنتي مثلكما، كما أنكما تدرسان في أفضل مدرسة في هذه المنطقة.

- نحن نريد أن نعيش بسعادة، بسبب حالها أنا أفقر مَن بالمدرسة يا أمي.

* * *

سمعتُ هذا الكم من الكلام واكتفيت، حاولت بعدها بكل قوتي أن أُحرر الحزام من عجلة الكرسي، فانقطع فغيرتُ طريقي إلى غرفتي بعدما كنت متَّجهة إلى غرفة الضيوف.

* * *

أنا فتاة طبيعية

دخلتُ غرفتي وأوصدت الباب بالمفتاح، حاولت الوقوف فسقطت ولم أتألم، إنما شعرت بحاجتي للمزيد من الضربات لأستوعب ما يحدث لي.

سأتركم أنتم لتصفوا حالي لأنني في تلك اللحظات استسلمتُ لواقعي وصِرتُ كسرابٍ جامد.. لا أصدق كل ما يحدث معي.. لا أصدق، هل كانت القرية أفضل لي من هذه المدينة.. تغيَّر كلُّ شيءٍ الآن، ستتعاطفون معهم وستقولون الحق عليكِ يا يوروشيل الغبية، لماذا تفتعلين كل هذه المشاكل؟

حسنًا سأصارحكم.

أنا ألقي كل ذلك لألقى اهتمام أبي.. أحب كسر الأشياء ليوبخني على الأقل لأشعر أنني مثل كل مَن هُم في سنِّي، فأنا دائمًا الفرد الذي تشفق عليه عين كل إنسان، أما قصة جارتنا فببساطة أنني في أول يوم لنا في البيت الجديد قررت أن ألعب بالكرة لأنني تأثرت بحركات الرياضيين على التلفاز، فحاولت تقليدهم لكن بطريقتي أنا الجالسة على الكرسي، فرميتُ الكرة بقصد أن تضرب الحائط لتعود إليَّ، لكنني أخطأتُ فسقطت مباشرة في حديقة السيدة «آسيا» فغضبت منِّي وصرخت في وجهي، فأعجبتُ بموقفها لأن الكل كان يعاملني معاملة خاصة كوني مقعدة، وكان الجميع يخافون من جَرح

شعوري، كان الأمر على غير العادة يسعدني، فأخذت أرمي الكرة كلما سنحت لي الفرصة.

ستقولون إن هذه المجنونة متناقضة.. في صغرها أحبت الاهتمام والآن تعشق التوبيخ، الأمر ببساطة أنني الآن بحاجة إلى أن يقول لي الجميع ما في قلبه بكل صراحة ودون مجاملات..

* * *

بقيتُ في غرفتي مدة طويلة فكرت خلالها مليًّا في حياتي وكل ما عشته إلى الآن، إلى أن طرق الباب وسمعت صوت «چوليا» وهي تنادي من خلفه:

- لماذا توصدين الباب.

حاولتُ جاهدةً أن أعود إلى كرسيي فلم أستطع، بل أحسستُ حينها بألم سقوطي:

- يوروشيل إنها غرفتي أيضًا افتحي الباب.

- أنا لستُ على الكرسي يا چوليا، افعلي شيئًا وافتحيه إني أتألم.

سمعتُ خطوات «چوليا» وهي تركض، ثم سمعت أصوات أمي وأخي وهما مصابان بالذعر:

- يوروشيل حاولي أن تزحفي ببطء بعيدًا عن الباب حبيبتي. هل صرتُ حبيبتك الآن..

- يوروشيل هل تسمعينني، ابتعدي عن الباب حتى أكسره.

- يوروشيل لا تخافي نحن هنا.

ومَـن قال أني خائفة ، أنا في غرفتي بين أغراضي ورسـوماتي لماذا قد أخاف؟

ابتعـدتُ عـن البـاب وأنا ما زلت أشـعر بالألـم لكني كتمته وقلت ببرود :

- ها قد ابتعدت.

وبعد محاولتين لكسره نجح أخي البطل الذي تخلى عني منذ سـاعات واحتضنتنـي أمي ولأول مرة بعـد الاحتضان صرخت في وجهي:

- لماذا تفعلين دائمًا هذا بنا؟ حذرتكِ دائمًا وقلتُ لكِ لا تحاولي الوقوف، لماذا تعذبيننا؟ أنتِ غير مبالية لحالتنا ولا تفكرين إلا بنفسك.

ثـم أضافـت «چوليـا» وهـي في قمـة سـعادتها أن أمـي أخيرًا صرخت في وجهي وأخرجت غضبها عليَّ:

- متى عدتِ؟ لماذا لم تسلِّمي علينا؟

قلت في نفسي:

هل هذا همكِ فقط يا أم المصائب؟

- عدت منذ قليل.. كنت متعبة فأردت أن أبقى أرسم بمفردي قليلًا.

- ترسمين على الأرض؟ أين ألوانك؟

- أرسم في مخيلتي فقط.. إنها موهبة جديدة.

اسـتلْقت "چوليـا" علـى سـريرها وأخـذت خصلة من شـعرها

وشـرعت في ضفرها ، ولكي تذهب الطاقـة السلبية عن الغرفة كما تقول الوالدة الكريمة فتح "چيمي" نوافذ الغرفة.

- أبوكم لن يعود قبل يومين، لديه عمل وسيذهب إلى المدينة الشمالية.

نشكرك على المعلومة يا أمي، لقد أحسنت في تصفيه الجو وجعل السحب الماطرة ترحل.

- لماذا تبتسمين لي يا يوروشيل؟

- وما عساي أن أفعل غير الابتسام لكِ يا منقذي البطل؟

- إنه واجبي يا حلوتي، لا تنسي أنكِ مدللتي.

تبـا لك.. آه كم أريد عضك.. حقًّا أريد هذا.. ماذا؟ بالتأكيد لن أفكر في قتل أخي، عضة ستكفيه.

علـى كلٍّ حـال، غاب أبـي عن المنـزل يومين كاملين مرًّا بشـكل مميـز جدًّا ، تصرفـت خلالهما بأدبٍ بالـغ، وصرت بين ليلة وضحاها فتاة اجتماعية بامتياز.

خذلنـي ذاك الـذي بنيـتُ أحلامـي عليـه، ذاك الـذي حاولت بـكل قوتي حمايتـه، ذاك الـذي حاربت ضميـري الضعيف من أجلـه، وقلبي النقي مـن أجل تبرير تصرفاتـه، خذلني وتركني وأنـا التـي كنت ألتمس لـه الأعذار فـي كل مـرة يطعنني فيها بخناجره الحادة التي دمرت داخلي وجعلته رمادًا..

* * *

لماذا نستمر في مسامحتهم ونحن نعلم أنهم سيعيدون الكرَّة؟

لماذا لم يقدِّروا الفرص التي مُنحَت لهم يا تُرى؟

أهو ضعفنا أم طيبة قلوبنا؟

مَن أوصلنا إلى هذه النقطة؟

لماذا خذلونا بعد كل ما قدمناه لهم؟ لماذا؟

* * *

أمل بلا عنوان

بعد أن عاد أبي طلبتُ منه وتوسلت إليه أن يأخذني إلى جدتي وخالي لأزورهما، حيث أننا في عطلة الربيع، فلبَّى طلبي ومكثتُ لديهما مدة أسبوع.

كانت جدتي «نانسي» رائعة وحنونة تحبني بصدق وتحنو عليَّ، كنت أحب زيارتها بين الحين والآخر، تعلمون السبب؟

بيتها جميل جدًّا له أثاث خشبي بسيط وديكور يبهج النفس المهمومة، أما خالي «هاري» فهو مضحك لدرجة كبيرة، ليس له عمل سوى التهريج لإضحاك الصغير ومرضى المستشفيات، عمل صغير يدخل فرحة كبيرة بدخل مادي قليل، دعوني أحكي لكم عن «ماريوس» أيضًا وهو صديقي منذ الطفولة، لكنه لا يدرس معي في نفس المدرسة، كما أنه أكبر مني بثلاث سنوات ويعيش في منزل كبير في نفس الشارع الذي تقيم فيه جدتي، لذا ألتقيه دائمًا حينما أذهب إلى هناك، ولم أجد داعٍ أن أقاطعه فهو في النهاية لطيف جدًّا معي ويحترمني بشكل كبير، أمه السيدة «إيميلي» امرأة لطيفة وهي من سيدات المجتمع اللواتي وضعن بصمتهن فيه، فهي طبيبة متميزة وذكية جدًّا، والده السيد «چيمي» محام مرموق يدافع على حقوق الناس ويحفظها، أخته الكبرى «چوزيفين» وهي في مثل سن أختي «چوليا» وتدرس معها، لكنهما ليستا مقربتان ولا أعرف السبب حقيقة..

بعد أسبوع أمضيته كحلم جميل عدت إلى عائلتي التي توقعت أنها هي نفس الحلم، لكنها لم تكن سوى كابوس مرعب متَخفٍّ وراء حُلم كاذب..

وتوالت الأيام والشهور وأنا على حالي مع الجميع كسبت علاقات عابرة لم أكن أعيرها أي اهتمام ببساطة لأنها ليست الصداقات التي أريدها ولا العلاقات التي أُحبِّذها، إنما كانت فقط لأُقوّي نفسي أمام أسرتي التي اعتبرتني الأضعف دائمًا.

* * *

حينما بلغتُ الخامسة عشرة من عمري عثر خالي على عمل في دار رعاية للأيتام في الجهة الشمالية بمنطقة قرب التي كنا نسكن بها سابقًا، فقررت أن أذهب معه وأصررت على ذلك، وقد قابلني أبي بالرفض التام في البداية، فكان ردي:

- أنا في سن الخامسة عشرة وأنت لم تستطع أن تبدأ في علاجي إلى الآن، وأنا ما زلت على حالي، وأنتم لا تريدونني، ألا يكفي كل هذا لأذهب مع خالي الذي لم يجرحني ولو مرة واحدة في كل سنين حياتي التي بقيت فيها معكم، أنتم الذين استغبيتموني.

- يوروشيل ما هذا الذي تتكلمين عنه.

- أبي اتركها لقد كبرت ولا خوف عليها مع الخال «هاري» سيهتم بها ودار رعاية الأيتام ستكون المكان المناسب لها.

- اخرسي يا چوليا ما هذا الذي تتفوهين به؟

هل هي يتيمة ليكون هذا المكان مناسبًا لها، أنا والدها

وتلك أمها، وما زلنا على قيد الحياة.

- عزيزي، «چوليا» تقصد أن دار رعاية الأيتام مكان يتفهم فيه الناس بعضهم ويتعاملون بشكلٍ لطيف، ولن تتعرض للمواقف التي حدثت لها هنا.

- أي مواقف تقصدين؟

ما بكِ يا امرأة هل تتخلين عن ابنتك؟!

أحسستُ أن كلام أبي قد دخل لصدري كالسيف، فأجبت بسرعة.

- لا يا أبي، أمي تقصد أنني سأكون سعيدة بين أولئك الناس البسطاء؛ لأني أجيد التعامل معهم.

- ومنذ متى تتعاملين معهم لتجيدي ذلك.

- أبي، يكفي هذا لقد كبرت سأحاول إيجاد مكان لي هناك وسأعود لا تقلق، لن أبقى طوال حياتي هناك.

- يوروشيل، إن تركتُكِ تذهبين فهذا لا يعني أني تخليتُ عنكِ ستذهبين لتجدي ما يعوضك ثم تعودين إليَّ.. ستذهبين لتجدي اللاعنوان.

ابتسمت قائلة:

- حاضر يا أبي، لا تقلق عليَّ.

- عزيزي هاري اهتم بابنتي.

- لا تقلقي يا أختاه إنها عصفورتي الجميلة.

- لكنها عصفورتك التي لا تطير يا خالي.

لم يُعر الخال اهتمامًا لكلام أختي وتجاهَلها.

- هيا بنا سنرحل غدًا، حضِّري نفسك للسفر في الصباح الباكر.

ذهبت في تلك الليلة إلى النوم باكرًا، حاولت لكنني بقيت مستيقظة وفكرت في أيامي القادمة ثم أغمضت عيني.

أنا ابنة عائلة كانت فقيرة، تعرضتُ لحادثِ مرورٍ ألْزمني الكرسي طوال سنين طفولتي، عشتُ بين أكاذيب الناس وشفقة أهلي عليَّ، وكره إخوتي لحالي هذه، هل أستطيع حقًّا أن أمضي من دون أبي؟ هل أستطيع الاستمرار من دونه وهو الذي لا يعلم شيئًا؟ انظر يا أبي، ابنتك واجهت كل هذا ولم تخبرك، ابنتك واجهت قسوة الناس في سنٍّ صغيرة، فهل تستطيع أن تنجو في هذه التجربة؟ أجبني يا أبي هل سأنجح؟

* * *

فتحتُ عيني والدموع تنهمر منها، فسمعته يقول:

- أنتِ تبدين كمن أطلق سراح دموعها من سجنٍ عتيق، موصد بقفل صعب أن يفتحه أحد، من فتح قفله يا ابنتي.

- أنت من فعلت ذلك يا أبي.. قلت هذا وكأنني في منام ثم عدت إلى رشدي وتأكدت من أن الصوت حقيقة، فأنا لا أستطيع أن أوصد باب الغرفة وحدي وأنا على فراش النوم:

- أبي ماذا تفعل؟

- إنها غرفة ابنتي وهذه آخر ليلة لك هنا.. أردت أن أبقى قليلًا معكِ، چوليا في الغرفة الأخرى مع أمك.

- منذ زمن لم نتحدث صحيح؟

- إنه أمر بديهي يا أبي.. فأنت دائمًا مشغول، خاصةً بعد انتقالنا إلى الجنوب، كيف هي أعمالك يا تُرى؟

- لا تشغلين نفسكِ بهذا، لقد وعدتكِ فيما مضى بأمرٍ لم أستطع تحقيقه حتى الآن، لكنني لا أخجل منكِ ولا بكونك مقعدة، فأنتِ ابنتي وأميرتي وآخر صغاري لا يمكنني تركك، تعلمين هذا؟ ما كل هذه الحوادث التي لا علم لي بها، يوروشيل صارحيني يا ابنتي؟

- أمور اختلقوها هم من أجل إبعادي يا أبي.. أنا ذاهبة بإرادتي، لا تشغل نفسك إنها أمور من الماضي وأنا الآن بخير، ثم لا بد أن نكون واقعيين ولا داعي لاستعمال الخيال لقد كبرت.

- عندما كنتِ طفلة كنتِ تفضلين الخيال، كنتِ تحلمين دائمًا، أحلام يقظة وأحلام أثناء النوم وأحلام في كل مكان.

- أعلم هذا، لكنني كبرت وصرت متأكدة أن العيش في الواقع جميل.

- يوروشيل، أنا أؤمن بنجاحك، ستنجحين وستصلين لتحقيق أهدافك لكن لا تنسي أنني عندما كنت أصرخ في وجهك لم يكن مرادي إلا أن تتعلمي وألا تقعين في نفس الخطأ من جديد.

- أبي أنا سأبدأ حياة جديدة ولا أريد تذكر شيء، فلننسى ما فات لأنه لا يزعجني، قد صرت واقعية أكثر لا بد من تقبُّل ما في حياتي، أبي أنا لديَّ ثقة أن الله لن يجعلني أعاني، فهو لن يحمِّلني ما لا طاقة لي به.

- كان جدك يقول نفس الكلام، نامي الآن وأنا سأنام على سرير «چوليا»، لكن عديني بأن تجدي لحياتك أهدافًا جديدة.

- مثل ماذا؟

- استغلي وجودك في دار رعاية الأيتام وتعلمي من حياتهم الجديدة وساعديهم على تخطي أزماتهم مثلما تفعلين أنتِ الآن مع نفسك، لن أشرح لكِ أكثر، أنت ذكية وفهمتِ مرادي بالتأكيد.

- كلامك كله شفرات كالعادة.. تصبح على خير يا أبي.

- تصبحين على خير أميرتي.

* * *

لا أحد يبقى صغير.. وتبقى الذكريات ومهما كانت تافهة تشكل حلمًا بالعودة إلى الوراء حتى نعيشها من جديد.

إنها الحياة.. لا بد دائمًا من أن نتقبل واقعها مهما كان مريرًا.

* * *

في صغرنا مشينا أولى الخطوات نحو النجاح، وها نحن الآن نكمل المسيرة حتى نضع في السنوات القادمة بإذن الله آخر اللمسات، ما هي أكثر ذكرى عشتموها في الماضي وما زالت تؤثر فيكم إلى الآن؟

هل لطموحكم المستقبلي علاقة بالطفولة، وما هو السبب؟

ما هو الفرق الذي لاحظتموه أنتم بأنفسكم حينما كبرتم؟

* * *

لاحظت في هذه الفترة أن حياة الطفولة التي كنت أشتكي أحيانًا من مصاعبها الصبيانية، أبسط من حياة المراهقة.. ففي الطفولة أو في طفولتي أنا شخصيًّا عشت ببراءةٍ دون أن أشعر بما يحدث حولي، كانت كل أحلامي وردية خاليةً من اليأس، أنا الآن كبرتُ قليلًا ووجدت أن الحياة ليست بتلك السهولة، فقد صرت مسؤولة عن أشياء لم أكن مسؤولة عنها من قبل، زاد الحمل ووجدت أنه لا بد أن أضحي، أن أبكي خِفيةً أحيانًا حتى لا يظهر للناس ضعفي، أبكي من أجل أتفه الأسباب فقط لأن داخلي مكسور.. فما الحل يا تُرى؟

* * *

بداية من جديد

في صباح اليوم التالي انطلقت مع خالي نحو محطة القطارات لركوب قطار الشمال.. كنت مسرورة لكن إحساسي بالخوف من المنعطف القادم لم يفارقني، حينما أتذكر نظرات أبي الحزينة التي كانت تودعني مع ابتسامةٍ ذات معنى عميق، وقُبلات أمي وعناقها الذي لم يسمح لي بالتنفس، ولن أنسى جدتي والبسكويت الذي خبزته لي كونها تعرف مدى حبِّي له، أما إخوتي فقد اكتفوا بكلمات شفافة، وكان يبدو عليهما الارتياح الشديد وأنا بدوري تظاهرت بهذا.

ركبنا القطار وانطلق، أغمضت عيني فأحسست برعشة قوية تسري في جسدي، نقضت وعدي وبكيت ألمًا وفكرت قليلًا فيما عشته مع هؤلاء الذين تركتهم الآن، إخوتي كانا في أحد الأيام يحباني، لكن كل هذا كان مسرحية انتهت قبل انسدال الستار، وانكشف الأمر حتمًا..

لا أستطيع إكمال هذا الطريق من دونهم.. لا أستطيع الوصول إلى نهاية لا أعرف كيف كانت بدايتها، كل شيء كان يقول اهربي.. اطلقي سراح نفسك، حتى لو لم تنجحي من دونهم.. اثبتي لهم أنك حاولتِ.. اعطِ نفسك فرصة المحاولة.

كان القطار يسير وأنا أسترجع ذكرياتي مع من تركتهم منذ ساعتين..

أمـي، وهـي التي قدمـت لـي الكثير، المـرأة التـي أحبتني بشـغف.. التـي حملتنـي داخلها تسعة أشـهر، تعبت لأجلي سـنين طويلة، تعبت من أجل أن تمنحني السعادة التي لم أشـعر بها منذ حادثتـي مـع كاتريـن.. لقد حاربت أمـي من أجل أن ترسـم على شـفتي ابتسامة واحـدة على الأقـل، لكنها اسـتسلمت وأعطت دورها للخال هاري.

أبي هو أكثر إنسان أحترمه وأقدِّره.. سـهر من أجلي ومنَحني الكثير.. عمل كثيرًا لتوفير نقود تؤمِّن لي حياة سـعيدة.. لكنه مـع كل ذلك فشـل فـي إخفاء مشـاعره.. فشـل في إخفـاء تعبه وتحطمه.. فشـل فـي أن يكمـل الطريق معي، فتوقـف في ربعه وأعطى الشعلة التي تنيره في الظلام لخالي هاري أيضًا..

وصلنـا أخيـرًا إلـى وجهتنـا المنتظـرة، وكـان فـي انتظارنا الأسـتاذ «رودفـل» وهو رجل فـي مثل عمر والدي وأسـتاذ في دار الرعاية، يتولى شؤون أصدقائنا هناك وتعليمهم.

تحدث مع خالي «هاري» وطلب منه أن يسمح له بجر كرسيي كنوع من الأدب، كنت مسرورة جدًّا أن هناك شخصًا احترمني في بدايتي بين هذا العالم الجديد.

وصلنا إلى سـيارته فأشـار له خالي أنه هو من سـيحملني إلى داخلها فتنحَّى السيد وطلب من سائقه أن يحمل حقائبنا.

وطـوال الطريق وأنا على غيـر عادتي أضحك وأقهقه وأتكلم كأنـي ابتلعت مذياعًـا لا يتوقف أبدًا، سـألت السيد عن طبيعة الأطفـال الذيـن هنـاك وحاولـت إظهـار الجانـب السعيـد مـن

شـخصيتي الذي لم يظهر منذ حوالي خمس سـنوات، وقد كان يبـدو علـى خالي «هاري» الفرح والسرور بنتائـج هذه الرحلة التي تبدو ناجحة جدًّا.

وصلنـا الـدار وفتـح السائق كرسـيي المطوي ووضعـه أمام بـاب السيـارة منتظـرًا خالي ليهُـم بحملي، سـبقنا الأسـتاذ إلى الداخل وبعد ثلاث دقائق اسـتغرقناها ربما في جعلي أجلس على الكرسـي بشـكل سـليم، خـرج مجموعة مـن الأطفـال ومعهم خمـس نسـاء أظنهن مربيات أو مشـرفات، كـان الجميع بلباس واحد قميص أبيض وسروال أزرق للذكور، وثوب وردي للإناث، خرج بعدها السيد «رودفل» وقال:

- هيا بصوت واحد.

فهتف الجميع:

- أهلًا بالسيد هاري.

ضحكـتُ بسعادة ثم نظرت إلى خالي فوجدته قد أسـرع إلى الأطفال يعانقهم ويقبِّلُهم وهم مسرورون أن هناك مشـرفًا جديدًا سيتولى رعايتهم مع البقية.. ربما دام هذا ربع ساعة عاد خالي إليَّ بعدها وقال:

- أطفالـي، أعرفكـم بصديقتي الأميرة يوروشـيل.. أرجو أن تكونوا أصدقاء لطفاء معها.. هيا يوروشيل ألقي التحية.

فأجبت بفرحة:

- أهلًا بالأصدقاء، أنا يوروشـيل وعمري خمسة عشـر عامًا أي أكبر منكم بقليل، أتمنى أن تجمع بيننا صداقة قوية ما رأيكم؟

أسرع الأطفال إليَّ ليقبِّلوني، لم أتفاجأ حينما طلب أحدهم أن يركب على الكرسي معي، ولم أنزعج من أخرى حينما طلبت مني أن أعطيها مكاني.. لقد كانوا أبرياء لدرجة أنني عشقتهم من أول يوم، ذكَّروني بطفولتي حينما حلمت أن أكون الأميرة النائمة.

تكفَّل أصدقائي الجدد باصطحابي إلى غرفتي، وقد كانت بسيطة وجميلة، ذات طلاء أبيض، بها سرير وخزانة ومكتب وطاولة مستديرة تتوسط الغرفة.. هذا يناسبني جدًّا.

لم يتركني الأطفال قط، منهم من جلبت كرسيًّا ووقفت عليه لتضفِّر لي شعري، ومنهم من جلب كتابًا وطلب مني قراءته وسط ضجيج حاد لم أتحمله في البداية، فأنا لم أتعامل من قبل مع أطفال في عمرهم.. دخلت إحدى المشرفات وصرخت على الأطفال:

- اتركوا الآنسة ترتاح لقد أزعجتموها، هيا.

- لكن يا معلمة «ساندي» نريد أن نلعب معها.

فقلت أنا احترامًا للآنسة:

- أنا سأبقى هنا أعزائي، لدينا وقت كافٍ للَّعب، اسمعوا كلام الآنسة أحبائي.

فترك الأطفال الغرفة وبقيت الآنسة كأنها تريد أن تقول شيئًا.. ساد الصمتُ الغرفة قليلًا وما زال كلتانا تنظر إلى الأخرى، لم أحتمل أكثر فبادرتُ أولًا:

- هل من خطبٍ ما؟

ابتسمت وقالت:

- لا شيء، سعيدة بوجودك لا غير.

- شكرًا أنتِ لطيفة.

- أنا اسمي «ساندي»، معلمة هنا منذ سنتين، الأطفال هنا مميزون وأذكياء.

- إنهم لطفاء وأبرياء.

- لقد تكلم السيد «هاري» عنكِ وقال إنك ستساعدينه في التدريس والإشراف.. لدينا فتيان وفتيات من عمرك وأظن أن هذا سيأثر نوعًا ما على هذه الدار، حيث إن الأطفال لن يتقبلوا هذا بسرعة.. أتمنى أن تكوني عند حسن ظن الإدارة بكِ.

- ماذا؟ هل قال إنني مساعدته؟ أنا!

- دخل الخال «هاري» فاستأذنت المعلمة «ساندي» وخرجت من الغرفة، فأدرتُ عجلات الكرسي متجهة نحو خالي.

- لماذا لم تخبرني أنك تخجل مني أمام الناس؟ ظننتك مختلفًا أيها الموهوب.

- ما بكِ؟ لماذا أنت متسرعة في ردة فعلك هكذا؟ أنتِ هنا لتساعديني كما أنني أخبرتهم أنكِ ابنة أختي، لكن لو تتذكرين إنني وأمك لسنا أخوة، فأمي اعتنت بوالدتك بعد موت جدتكِ الحقيقية.

- أعلم هذا وأمي مدينة لجدتي «نانسي» بالكثير، لكن لماذا لم تخبرني عن هذا، هل سأكون مدرِّسة للأطفال معك حقًّا؟

- أخبرتُ والدكِ حينما كنتِ تحزمين أغراضك، فلم كل هذه الأسئلة يا يوروشيل.. اسمعيني غاليتي عملُكِ صعب، عليك أن تبدئي بالمحاولة، عليكِ أن تخرجي من دائرة الفتاة العبوسة إلى تلك النشيطة التي كانت تثرثر طول الطريق مع السيد «رودفل»، المكان هنا يناسبكِ جدًّا، براءتهم ستحررك من ذكرياتك.

- لكنني لن أقف على قدمي ثانيةً، وأنت تدرك هذا، كما أُدركه أنا.

- لن أناقشك في حياتك، أنت كبيرة وناضجة الآن، أنت تفرقين بين الصحيح والخطأ والجيد والسيء، ثقي بنفسك.. ستتعلمين منهم ما لم تتعلميه من قبل.

تركني خالي بعد هذه الكلمات وذهب إلى غرفته ليرتاح، أظن أنني الآن متحررة أكثر، ها أنا في غرفة بمفردي بينما كنت أشارك أختي غرفتها كما تقول؛ لأنني عاجزة وأمي تخاف أن أحتاج شيئًا في الليل فلا أجد أحدًا معي، ها أنا الآن أتكلم براحة أكبر، أعبر عن رأيي من دون قيود، نعم هذا هو عالم «أمل بلا عنوان» بدون قيود وبدون خلافات، كلنا يتقبل أفكار الآخر، كلنا مع بعضنا نشكِّل الأمل.

شاركوني أملي أصدقائي، شاركوني..

* * *

مرَّت تلك الليلة بسَيلٍ من الدموع، أردت أن أُنظف قلبي وأن أبكي وأُخرج الألم الذي قتلني.. تذكرتُ معلمة الرياضيات التي اختارت أن تقف مع ابنتها بدلًا من أن تعرف الحقيقة، ومعلمة

الإنجليزية التي لم تحاول تدبر الأمر، بل نفتني إلى آخِر الصف، جيراننا وشفقتهم عليَّ، إخوتي وكرههم لحالي، أبي ومحاولاته لاستعادة ابنته المقيدة داخل شعار «أمل بلا عنوان».

لكن.. كل شيء سيكون بخير.

سمعت صوتًا ما من خارج الغرفة، لم أستطع القيام ولم أستطع أن أركب الكرسي، كان صوت همس ربما أو شيئًا كهذا، شعرت بالخوف بداية لأنها أول ليلة أكون فيها بمفردي، تذكرت حكايات شارلوت عن الأرواح وبدأت مخيلتي تعمل على أفلام الرعب والقبور، اختبأت تحت اللحاف وعانقت وسادتي خوفًا من المجهول صاحب الصوت الذي كان يقترب وفجأة.. تلاشى تمامًا.

* * *

ألوان من براءة

استيقظت في الصباح على صراخ الأطفال من حولي، أحسست نفسي في كرتون فلة والأقزام السبعة، غير أنهم كانوا عشرة أطفال حينها، فتحت عيني ففاجأني أحد منهم بوردة بيضاء، أظنه قطفها من الحديقة الكبيرة وقال لي:

- صباح الخير آنسة يوروشيل، غنِّ لنا أغنية الصباح أرجوكِ.

فتبعه الجميع قائلين:

- نعم نعم غنِّ لنا غنِّ لنا.

ضحكت بصوت عالٍ وقلت لهم:

- لا أجيد أغنية الصباح غنوها لي يا أطفال أريد تعلمها.

فقال أحدهم:

- هيا، واحد، اثنان، ثلاثة:

- صباح الخير يوروشيل..

نحبك يا يوروشيل..

استيقظي فقد حل الصباح يوروشيل..

يوروشيل استيقظي.. غنِّ معنا وارقصي..

يوروشيل حبيبتي.. غنِّ معنا يوروشيل..

تصدقون؟ هؤلاء الأطفال معجزة حقيقية، أحببتهم من قلبي وتعلقت بهم أكثر بعد هذه الأغنية.

- شكرًا أحبائي.

- لن تصرخي علينا أليس كذلك؟

لم أستطع الإجابة فقد فُتح الباب ودخلت فتاة ربما أكبر مني بسنتين وقالت:

- هيا يا أطفال لا تزعجوا معلمتنا الجديدة يبدو أنها لم ترتح بعد.

- هم لا يزعجونني، كانوا يغنون لي أغنية الصباح.

- اخفِ تلك الوردة التي بيدك، لو رأتها إحدى المعلمات ستقعين في ورطة كبيرة.

- وما العيب في وردة صغيرة كهذه؟

- لو علم أحدهم أن الصغار يقومون بقطف الأزهار ذات الأشواك المؤذية من أجلك ستحدث مشكلة.

- هيا يا أطفال اخرجوا، ماذا لو رآكم السيد «رودفل» هنا، هذه معلمة ليست طفلة.

خرج الأطفال وهم مستاؤون جدًّا وبقيت هذه الأخيرة في الغرفة وأحضرت الكرسي الذي كان في زاوية الغرفة وقالت:

- هل أساعدك على تغيير ثيابك؟

- تغيير ثيابي ليس صعبًا، أرجو منكِ فقط أن تعطيني الفستان الوردي الذي من هذه الحقيبة.

- حسنًا، سأتركك إذَن تبدِّلي ثيابكِ، بعد نصف ساعة موعد الفطور، المعلمات لا يحببن التأخير لا تنسي.

- هل هذا احترام منها أو ماذا؟ أمر عجيب حقًّا.

* * *

غيرتُ ثيابي وجلست على الكرسي بسهولة أكبر لأن الكرسي والسرير في ارتفاع واحد وهذا ساعدني جدًّا، والفضل في هذا يرجع إلى التمارين التي كنت أمارسها مع المشرف الذي أحضره والدي من أجلي، والذي لم يتمكن من إكمال أسبوع معي، وبالطبع هذا كله بسبب غطرسة أختي «چوليا» وتدخُّلها في كل شيء.

اتجهتُ إلى الباب وفتحته فوجدت خالي يهم بالطَّرقِ عليه ثم ابتسم:

- صباح الخير، يبدو أنك استيقظت مبكرًا اليوم، حان موعد الإفطار هيا.

حملني خالي من على الكرسي وطلب من الفتى الذي كان معه أن يحضره، تعجبت ففي آخر الممر كان هناك درَج وأنا غرفتي في الطابق الأرضي أي أن غرفة الطعام تحت الطابق الأرضي -لا تضحكوا لم أعرف اسم الطابق- وضع الفتى الكرسي وقال لخالي:

أيها المعلم، لماذا لا تجعلها تقوم بتمرينات لتتعافى، مثلًا دعها تقف قليلًا قبل الجلوس.

أجبته بصبر:

- لا أستطيع، لا بد من تمرينات أكثر قبل الوقوف وأنا لا أريد هذا.

- يوروشيل، هذا الصبي في مثل عمرك واسمه «ماركس».

ابتسم الفتى فابتسمتُ وفتح الخال باب غرفة الطعام، كانت غرفة كبيرة فيها طاولة طويلة جدًّا تتَّسع لكلِّ أهل الدار، كان على الطاولة ورق مكتوب عليه اسم كل طفل وكل معلم، سبقنا الأطفال، وقد جلسوا على مقاعدهم بأدب وهم ينظرون لي كالملاك القادم من الجنة، كنتُ أمرُّ من أمامهم وأبحث عن اسمي فوجدته قرب الآنسة «ساندي»، وكان هذا بديهي لأن لا كرسي أمام الاسم بما أن كرسيي الخاص حاضر، جلسنا منتظرين مدير الدار.

وفَوْر أن لحقَت إبرة الساعة السابعة حتى دخل، لقد كان رجلًا بدينًا بشوش الوجه تبدو على ملامحه الطيبة، جلس على كرسيه الكبير الذي يتَّسع له، بينما وقف الجميع ما عدا أنا.. وقال:

- أرحِّب بالمعلم الجديد، أعتقد يا سيد «هاري» أن تجربتك السابقة ستشكل دافعًا لك لتعليم صغارنا، آنسة «يوروشيل» لقد سعدتُ بحضوركِ أنتِ أيضًا وأتمنى أن تكوني صبورة معهم ومتفهمة بالشكل الأكبر، أعتقد أن عجزكِ علَّمكِ الكثير.. عليكِ نقل ما تعلمتِ إلى الأطفال بشكلٍ غير ضار لو سمحت.. في دارنا هذه نؤمن بكلمة الوقت أكثر من أي شيء آخر، وقت الاستيقاظ وقت الأكل، وقت الدراسة ووقت النوم.

أجابه خالي:

- نشكر حسن ضيافتك وترحيبك، متأكد أن براعمنا

سيعلموننا الكثير بدورهم.

قلت أنا بشيء من البراءة والاندفاع:

- عفوًا سيدي ماذا عن اللعب؟

الْتفَت الجميع لي، وتجاهل المدير سؤالي.

- تفضلوا أحبائي إلى الأكل.

أحسستُ بالخجل بعد هذا الموقف وبقيت علامات الاستفهام على وجهي إلى أن أكمل المدير طعامه وقال:

هيا.. أحضروا لي الورق، ثم أضاف:

- ستعجبكِ اللعبة آنسة يوروشيل.

* * *

القُرعة العجيبة

وقف كل تلميذ ونزع اللاصقة التي كانت تحمل اسمه على الطاولة وأخذها إلى المدير الذي جمعها ووضعها في حوض، بالتأكيد عرفتم اللعبة، إنها القرعة، يختار خمس تلاميذ بشكل عشوائي ويعطي مهمة تدريسهم لأستاذٍ معين، كل أستاذ يختار طريقته الخاصة ومن هنا نستنتج أن الأطفال من سن خمس سنوات، والفتيان من سن عشر سنوات يتوجب عليهم الدراسة في صفٍّ واحد مع معلم واحد وبطريقة واحدة بشكل عشوائي.. يا له من مدير مجنون حتمًا.

كان في مجموعة الخال «هاري» الطفلة «سيمين» سبع سنوات، والطفل «كرم» خمس سنوات، «چاكي»، و«ويل» عشر سنوات، و«ماركو» اثني عشر عامًا.

ذهبنا إلى الصف وقد احتار خالي ماذا يُعلِّم أطفالًا ليسوا في عمرٍ واحد، بدأ بمادة الحساب فتعجب أنهم لا يجيدون إلا المسائلَ البسيطة جدًّا، أي أكبرهم له معلومات صغيرهم، فانتقل للغة الإنجليزية والأدب فتعجب أكثر.. إنهم يجيدون كل القواعد حتى أفضل منه.

خرج خالي من الصف وتوجه إلى المدير، وبعد ساعة قضيتها أنا مع الأطفال أقرأ لهم بعض الكتب الشعرية عاد خالي غاضبًا تمامًا، دقَّ الجرس مُعلنًا وقت الراحة، فخرج الأطفال بشكلٍ

اعتيـادي جدًّا أثار انتباهي، لأنني في سـنِّهم كنت أحب أكثر وقت الراحة حتى أتخلص من الدراسـة والقواعد المسيطرة أثناء الدرس.

* * *

طلـب خالـي أن أنتظـره فـي الساحة مـع الأطفـال فحركت عجـلات الكرسـي متجهـة نحو إحـدى الزوايـا، تعجبـت فعلًا فكل المقاعد التي مررت بها للوصول إلى تلك الزاوية محجوزة، هـؤلاء الصغار لا يلعبون ولا يركضـون، يضحكون وتبدو على وجوههم السعادة، لكنهم ليسوا كالأطفال الذين في عمرهم، جاء خالي وجلس على الأرض كالمجنون فسألته:

- ما الأخبار؟

- سـيئة جـدًّا، لا يسمح للأطفال باللعـب خوفًا من أن يتحطم شـيء مـا بالـدار فيعيدوا شـراءه، ولا يسمـح أيضًا لهـم بالتوجه توجهات علمية، كل شيء موضوع للأدب والفن.

- أي إنهم لا يقومون بتشريح الضفادع أو الفئران؟

- لا فيزياء أو كيمياء ولا حتى أحياء تخيلي!

- ما عسانا أن نفعل؟ إنه النظام، ثم يبدو أنهم يحبونهم كثيرًا أليس كذلك؟

- ليـس من يومنا الأول سـنقول إنهـم يحبونهم، لكن الظاهر هكذا.

- الوضـع ممتـاز فـي هذه الدار مـا عدا كون هـؤلاء الصغار بحاجـة إلى اللعـب وتعلُّم بعض المصطلحـات العلمية، ثم لا تنسَ

أنَّنــي السنــة المقبلة عليَّ العودة إلى الدراســة مــن جديد وحضور امتحان تخرُّجي.

- أعلم هذا ، إنها تجربة جديدة لكلينا ، علينا فعل شيء ما ، علينا المخاطرة.

* * *

التحدي الجديد

فـي نهاية اليوم، جمعـتُ الأطفال في غرفتـي وبدأت أتجاذب معهم أطراف الحديث:

- أصدقائي، كان اليومُ شـاقًّا بالنسبة لنا جميعًا، ما زلتُ لم أحفظ أسـماءكم جميعًـا.. لكنكم أعزاء علـى قلبي، تعلمون ذلك صحيح؟

- يوروشـيل، لمـاذا طلبتِ اللعـب صباحًا وأنـتِ لا تستطيعين المشي؟

- كم عمرك؟

عشر سنوات.

- أردت اللعـب لأنني بحاجة إلى هذا معكم، مثلما تحتاجون إليه أنتم.

- تحبين الرياضة؟

- أنـا أقـوم بتمارين خاصة وليس مثلكم.. لكني منذ زمن لم أقم بها.

سـألني آخَر كان يجلس فوق مكتبي الخاص:

- هل هذه لكِ آنسة يوروشيل؟

ورفع رسوماتي إلى فوق فضحكتُ قائلة:

- نعـم عزيـزي «كرم» إنها لي، أظـن أن خالي هو مَن وضعها

هناك، فأنا لم أرسم منذ شهرين ربما.. عليَّ العودة إلى موهبتي.

قالت أخرى:

- آنسة يوروشيل هل تحبين الدراسة.

رأيت أن هذا السؤال مناسب كي أفاتحهم في الموضوع، فقلت:

- بالتأكيد أحب الدراسة فهي تفتح أفاقًا لأمورٍ لا نراها بالعين المجردة، مثلًا أن تفتح بطن ضفدع وترى ما بداخله.

تعجب الجميع وأخذوا ينظرون إلى بعضهم، ثم قال «كرم»:

- كنَّا نقوم بهذا حينما كنا في القرية، إنها تجربة مسلية.. لكن هل أمعاء الضفدع هي نفسها أمعاء الإنسان؟

وقال «ويل»:

- وأنا قمت بزرع العدس في القطن، هل هي تجربة يا آنسة يوروشيل؟

سعدت بسماع هذا وقلت:

- نعم إنها تجربة يا ويل، وهي تعلمك كيف تعتني بنباتاتك ومنتوجاتك.. إذَن ما رأيكم أن نقوم في الغدِ بتجربة على أحد الضفادع.

قالت أخرى:

- لكنه سيموت.

- لكننا بفضله سنتعلم أشياء جديدة عزيزتي.. هيا الآن حان موعد النوم لو رآكم أحد هنا سينزعج.

ذهب أطفالي ليرتاحوا من نهارٍ طويل، وأخذتُ أفكر أكثر بهم وفيمَا عليَّ فعله معهم، هل أخاطر؟ أو أن عليَّ أن أترك النظام كما هو؟

فتحت درج مكتبي وأخرجت الألوان وشرعت في رسم نفسي وأنا جالسة على الكرسي، لقد كانت أول تجربة أتقبل فيها حالتي بشكل إرادي تمامًا، أحسست أن عليَّ رسم نفسي على حائط هذا الجدار كي أعبر عن توجهي للنجاح.

وكالعادة في كل ليلة أسمع نفس الصوت العجيب، لكن من شدة تعبي لا أستطيع حتى النهوض لأكتشف المجهول.

في درس اليوم التالي أخذنا الأطفال إلى الحديقة الخلفية واتَّفق خالي مع المشرفين الآخرين على أن يحضروا تلاميذهم مغتنمين فرصة عدم وجود المدير.

بدأنا نشاطنا بحركاتٍ رياضية مرحة ثم ألعاب صباحية، وقد أعجب المشرفون بهذا جدًّا، بعدها أحضر الأطفال ضفدعًا وقد سعِد المعلم «رودفل» بعملية تشريحه، مع ذهول الصغار.. مرَّ كل شيءٍ بسلام، وقد سأل الأطفال كثيرًا من الأسئلة التي عجزت عن الإجابة عن بعضها.

عاد المدير في المساء وقد تكتم الجميع عن إخباره بما حدث، وقد كادت سعادة الأطفال أن تكشفنا، لكن هذا حدث فعلًا بفضل طفلة في الخامسة أثَّرت عليها التجربة بشكل سلبي حاد.. كنا نتناول طعام العشاء في صمت إلى أن قالت الأميرة البريئة:

- لقد قتلوا اليوم ضفدعًا صغيرًا يا أبي المدير.

- انتقلت أنظاري بعدما كانت على الطفلة إلى خالي الذي كان يبدو عليه الصبر.

سأل المدير:

- كيف هذا؟

- لقد قتلوه ثم وضعوا عليه إبرة يا أبي.

- أجل يا حلوتي لقد كنَّا نقوم بدراسة كيف أن التنبيه فعال جدًّا عليه.

- عمَّ تتحدث هذه الطفلة يا رودفل؟

سكت الجميع، أما أنا فتشجعت وقلت:

- أراد الأطفال أن يقوموا بتجربة علمية واقترحت أن تكون على الضفدع؛ لأنها تجربتي المفضلة، سيدي، الأطفال بحاجة إلى اكتساب معلومات جديدة عن الكائنات التي من حولهم، سيكون هذا مفيدًا لهم.

- ومَن أنتِ حتى تقرري إن كان هذا مفيدًا أو لا؟، لقد رأيت النتيجة بأم عينيكِ، هل هذه الطفلة تفهم معنى تجربة علمية.

- عمرها صغير نعم أتفق معك، لكن لو علَّمتهم على الأقل كيف يحسبون عدد حبَّات العدس التي يحصدونها، لكان هذا أفضل من العدم.

- آنسة «يوروشيل» تفضلي إلى مكتبي.

- لم أخف منه ولا من صرامته وعصبيَّته في حين وقف

المشـرفون للتدخل في الموضوع، غير أن وجه المدير البشـوش قد اختفى وظهر الجانب السيء منه.

- هل تعلمين خطورة ما تتفوهين به، أنتِ تغيرين من نظامي.

- أنـا متأكـدة مـن أنـك الوحيـد الذي يقـوم بهذه السياسـة مـع الأطفال، سـأقدم شـكوى ضـدك.. إنهم صغـار وبحاجة أن يكتشـفوا معلومات أكثـر عمَّا حولهم، عن بيئتهـم وما بها من كائنات حية مثلهم.

- لا تتدخلي، كلُّ من دخل هنا تقبَّل هذا النظام عداكِ أنتِ، ما زلتِ صغيرة.

- كلمـة صغيرة تنطبق علـى عمري، أما ثقافتـي فأظن أنها واسـعة، وليسـت مثلك أنت محـدود الثقافـة، أي دار رعاية هذه التي تعلِّمُ أطفالها مواد الأدب والفن والتاريخ فقط؟!

- دار الرعايـة للرعايـة، إنه لأمر جميل أن نقـوم بتعليمهم من دون حول لهم ولا قوة، كما أن التمثيل يجعلهم يتعلمون أكثر.

- أنت تناقشـني مع صغر سني، فأنت تعلم أنني على صواب، وأن الأطفال من حقهم الدراسة، كما أن من حقهم اللعب والمرح.

- ماذا لو سـقط أحدهم أثناء اللعب؟ ماذا لو خدش؟ سيكون عليَّ شـراء مواد أكثر واسـتدعاء أطباء أكثر، ثم علينا شـراء مواد كيميائية والكثير الكثير.

- وهـل فكرت في أن أحدهـم يمكن أن يُخدَش أثناء تمثيله في أحد المسرحيات؟

- لم أفكر في هذا.. سأمنع عنهم التمثيل إذَن.

- هل أنت مريض نفسي سيدي؟ لماذا تخاف عليهم إلى هذه الدرجة، أنا أدرك قدْر حبك لهم.. العالم في الخارج ليس كله وردي، عليك تدريبهم على أن يبكوا قليلًا بعد أن يسقطوا ثم ينفضوا الغبار ويقفوا بشجاعة أكبر.

- هل تربيتِ أنتِ بشكلٍ كهذا مع عائلتك؟ إنهم أطفالي ولا أريدهم أن يشعروا بالنقص أو أنهم أيتام معي.

- أنت تؤذيهم بهذا الشكل، ستفسدهم بدلًا من إصلاحهم.

- والحل؟

- اتركني أنا أهتم بهم.

- لديكِ فرصة واحدة.. اغتنميها، لو رأيت أنكِ تؤثرين عليهم بشكلٍ سيئ سأطردك أنت والسيد هاري.

* * *

النهاية

وصلنا اليوم إلى آخر القصة، شكرًا لكل إنسان تفهَّم مواقفي وتفهَّم أفكاري وانعكاساتها على واقعي، أشكر صغيركم لأنه أحبني وجعلني قدوة له وكبيركم لأنه احترمني كطفلة وأعطاني فرصة الكلام والتعبير..

* * *

في السنة التي بقيت فيها في دار الرعاية، كنت أرسل إلى والدي رسائل أسبوعية عن أحوالي ونشاطاتي مع الأطفال، كان والداي مسروران بنجاحاتي، لقد نجحت في المناقشة وفي النظر إلى عيون الآخرين حين أُخاطبهم، صارت عقدة الخراب من الماضي البعيد جدًّا.

تعلَّم الأطفال بسرعة كبيرة وقد تعرَّفت على مَن هم فوق ثلاثة عشر عامًا، وقد كان لكلٍّ منهم هدف بنوا عليه أساس تحقيق أحلامهم، كان أهل دار الرعاية متخوِّفين من مديرهم، متخوفين من مستقبلهم لو طردوا من تلك الدار.. لكن المدير أيضًا كانت له أسباب قد لا يميزها بعضنا ويراه بعضكم جشعًا، وآخرون يروه إنسانًا صالحًا، أما أنا فأراه بين هذا وذاك، فكلنا بشر ولسنا كالملائكة في هذه الدنيا.

كلنا نستحق فرصة ثانية للعيش، كلنا نستحق «أمل بلا عنوان»، كلنا نستحق أملًا يدفعنا للمُضي حتى من دون سبب..

عندما تتراكم الأحلام ونعجز عن تحقيقها، يكون النسيان هو الحلم الوحيد الذي نتمنى وجوده عند اليقظة.. أليس كذلك؟

بعد نجاحي في اختبار التخرج واختيار الاختصاص المناسب، وقبل الموعد النهائي لتسليم قوائم الاختيار من أجل الدخول إلى الكلية، أردت العودة إلى نقطة البداية، أردت العودة إلى القرية التي عشت بها خمس سنوات من عمري.

كان كل شيء متغيرًا تمامًا، لقد صارت جنة على الأرض، جُبت شوارعها الضيقة متجهة نحو بيتنا، فوجدته قد تحول إلى مطعم فخم، لقد نجح المهندس «چيمي» في تحقيق حلم الطباخة «چوليا» أخيرًا.. مبارك لكما عزيزاي.

سمعت أن السيد «معتز» قد نُفي إلى دار كبار السن بفضل زوجة ابنه «رائف»، إنها نهاية كل من يتخلى عن والده حتمًا، والدور قادم على «رائف» في المستقبل أيضًا..

نجَحت «رغَد» في بناء حياة سعيدة مع أسرتها وزوجها «آغني» الذي أعاد إصلاح بيت جدها، لقد تحولت المومياء إلى إنسانة راشدة.. أتمنى لها ولأطفالها السعادة.

عدتُ في اليوم نفسه إلى المدينة اتجهت حيث خالي «هاري» بدار الرعاية، لقد مرَّت سنتان نجح فيها الخال في عمله، سعد الأطفال بزيارتي كثيرًا، وكشف أحدهم لي سر الصوت المنبعث الذي كان يخيفني كل ليلة، لقد اعترف «ويل» أنه كان يعطي بعضًا من الخبز لقطَّتِه التي يُمنع عليها دخول الدار، قال إن قطته لا يُسمح لها منذ أن جاء إلى الدار بالدخول، إنها

وفيَّة لأنها تنتظره، وهو وفيٌّ لأنه يعتني بها.

ما رأيكم أنتم صغاري؟

* * *

جدتي نانسي تعيش الآن مع والداي في نفس البيت بعدما اختار أخواي طريقهما كما أخبرتكم سابقًا.

«ماريوس» اختار أن يعمل محام كوالده ليدافع عن حقوق الناس، وقد احترمت قراره بعدما أرسل لي رسالة وأنا في الدار يخبرني فيها عن أحواله، قال إنه يريد أن يكون كوالده إنسانًا يحترمه الجميع، إنسانًا نزيهًا يقدِّره الآخرين، ليس منحطًّا لا همَّ له سوى جمع المال وملذَّات الدنيا.

كلٌّ اختار طريقه..

نقرأ في العديد من الروايات والقصص الشهيرة أحلام وآمال أناس كثيرين، قد يكون الاختلاف بينهم إما الشكل أو الجنس، أو ربما لون البشرة والتفكير.. لكن ما يجمعهم ربما هو حلم تغيير الماضي والسفر عبر الزمن.

كلٌّ منَّا عاش أيامًا صعبة، وقد تجاوزها بفضل صبره وقوة إرادته، حتى صغاري يعانون، أليس كذلك؟ ولِمَ العجب حتى الصغار يعانون، فهم في مرحلة التَّفتح وبالتأكيد لهم مخاوف متعددة.

ماذا؟ تريد أن تغير ماضيك؟

وهل أنت مقتنع بحاضرك؟

وماذا تتوقع من أجل مستقبلك؟

ماذا ستفعل بآلة الزمن لو كانت بين يديك؟

* * *

مع أنني مررت بتجارب لا تُعد قليلة، وصعوبات عديدة ومخاوف كبيرة؛ إلا أنني لا أود أن أعود إلى الماضي ولا أريد تغيير شيء ولا تعديل أي خطأ.. أريد أن تبقى حياتي كما هي فأنا مقتنعة تمامًا بأن الأمور التي كتبها الله لي كلها خير، مع أنني أحيانًا أتذمَّر من حياتي وأشعر بخوف كبير مما سيلاقيني، وأندم أحيانًا لأني تعرَّفت على أُناس أحرقوني ودمروني لكني أثق بخالقي وأحبه، لذا فأنا خورة بما أنا عليه الآن، وحمدًا لله أحاول دومًا أن أجعل من الماضي حافزًا لأتفوق به في المستقبل، ولو كانت آلة الزمن معي فربما أسافر إلى المستقبل لأرى شكلي، وكيف أبدو.

أحبائي، عيشوا اللحظة دون أن تتسرعوا في الحكم فإن بكيتهم اليوم تفرحون غدًا.. امحوا الماضي أو استفيدوا منه وامشوا بالحاضر من أجل المستقبل.

جاء موعد تسليم القوائم، ذهبت إلى مركز التسليم وحدي، انتظرت بدوري في الطابور تحت أنظار بعض المارين من المكان، وقفت أمامي فتاة ومدَّت يدها لي:

- لم تتغيري كثيرًا آنسة يوروشيل.

رفعتُ رأسي كي أراها بوضوح، كانت جميلة جدًّا وتبدو رقيقة أيضًا، عيناها عسليتان وشعرها بني فاتح، سمراء البشرة

وطويلة القوام، ابتسمتُ لها:

- أعتذر لم أعرفكِ.

- عيبٌ عليكِ إن لم تعرفي صديقة طفولتكِ التي تركتيها دون سابق إنذار يا يوروشيل.

- آريا؟؟؟ هذه أنت؟

- جميل أن تعرفي صديقتك بعد طول غياب.

عانقَتني «آريا» بحرارة، كنت بين الواقع والحلم، لم نلتقِ منذ زمن.. ولم أستطع التعبير فاكتفيت كذلك بتطويقي إياها وتقبيلها.

- ماذا اخترتِ؟ أي تخصص أخبريني.

- ماذا عنكِ؟

- اخترت طب الأعصاب، لقد تم التوصية عليَّ من قِبل الطبيب «مايكل».

- حقًّا؟ الطبيب مايكل نفسه؟

- الطبيب الذي كان يعمل في مشفى الحكومة سابقًا، لقد انتقل للعيش هنا، وهو ابن عم والدتي.

- إنه نفس من أشرَف على علاجي سابقًا.. مبارك لكِ عزيزتي أتمنى لك التوفيق، كيف عرفتيني.

- اسمكِ مكتوب على الورقة يا غبية.

- وأخيرًا حُل لسانك.. سعيدة برؤيتكِ ثانيةً.. لم أنتبه للإسم فأنا أنتظر الرقم فقط، سنلتقي بالتأكيد، انتبهي لنفسك.

حسنًا، لا أدري ما الذي عليَّ قوله، انتهت حروفي ولا أجد كلمات للتعبير، أريد أن أكون على طبيعتي.. يوروشيل الطفلة التي واجهت الكثير منذ سن الخامسة إلى العشرين، كبرت كثيرًا واليوم يوم ميلاد «چيمي» الرابع والعشرون، وبهذا فقد مرَّ خمسة عشر عامًا على بقائي في نقطة الصفر نفسها بدون وقفة واحدة على قدمَي.

أود أن أشكر أبي وأمي لأنهما منحاني فرصة مشاركة قصتي القصيرة معكم..

أريد أن أشكر كل من ساهم ولو قليلًا في جعلي هكذا، شابَّة طموح تدفعها أحلامها إلى تحقيق المزيد، وتحطيم أرقام قياسية فيما تحبه لنفسها..

أريد أن أشكر الصحفية «كاترين» لقسوتها عليَّ يومها، بفضلها أنا الآن رسَّامة موهوبة توصل رسالة في كل لوحة فنية تسهر على رسمها لأيام عديدة، لقد الْتقيت بها في أحد العروض التي كُلِّفَت بتغطية أحداثه، وكانت مجبرة على أن تقوم بمقابلة معي، أحسست بنجاحي وتفوقي بعد كل تلعثم في حواري معها، لقد أثبتُّ أني أفضل منها حتى بعد أن اضطُّرت لجرِّ الكرسي بدلًا عن المحامي الخاص بي، خطيبي وصديق طفولتي السيد «ماريوس».

* * *

براءة «چوليا» في الطفولة لم تكن كافية لتستمر وهذا يرجع ربما إلى اهتمام الجميع بي وإهمالهم لها، فصارت النقود

هدفها ولم تتفاهم مع «چوزيفين» أخت «ماريوس»؛ لأنها تختلف عنها، ومع هذا تغلبت على حقدها وطمعها، لذا أريد أن أشكر الطباخة «چوليا» التي أشرفت على التحضير لحفل تخرجي، لقد أصلحت خُطاها في النهاية بعدما صار صديقاتها الأغنياء من معجباتي، وأخيرًا اعترفت بي كأختٍ لها..

شكرًا لأنكم شاركتموني أحلامي ومواقفي التي تعلمنا منها معًا دروسًا جديدة وقِيمًا قد تكون سببًا في قتل مخاوفنا المستقبلية، زاد الحمل هذه المرة مع الأسف..

لا تجعلوا من مخاوفكم حائلًا بينكم وبين تحقيق شيء تحبونه، لا تسمحوا لها بالتغلب عليكم، حاربوها، حاولوا مجابهتها، حاولوا كما حاولتُ أنا الوقوف لكنني لم أنجح، أنا أستمر في المحاولة حتى وإن قال الجميع أنني لن أستطيع، العلم يتقدم وبالتأكيد سيعثرون على وسيلة ما لقتل مرضي، لقتل العجز والإعاقة.. آمنوا بي كما أؤمن بكم.. ربما وصلت الآن إلى منتصف الطريق، وصلت معكم وبكم، والآن حان الوقت لتتركوني وتمضوا أنتم، لقد وصلنا لمفترق الطرق، كلٌّ منَّا سيختار ما يريده لنفسه، وأنا اخترت الرسم والنجاح بفني.

صغاري في دار الرعاية أيضًا اختاروا أهدافهم..

فماذا اخترتم أنتم يا تُرى؟

* * *

كلنا بحاجة إلى «أمل بلا عنوان» في حياتنا.. قد يكون حافزًا، قد يكون دافعًا، قد يكون شخصًا عزيزًا، وقد

يكون نفسك أنت، لا تبحث عنه.. هو وحده من سيجدك، آمن به ليتحقق، في كل شخصية التقيتها من بين كل هؤلاء الذين ذكرتهم، وجدت «أمل بلا عنوان»، وجدته بين ضحكات أمي، وسخرية «چوليا»، ونصائح أبي، وحنان «چيمي» الذي ظلَّ يشعر بالذنب بسبب ذكرى حادث يوم عيد ميلاده التي وضعت قالبها على قلبه، حتى «كاترين» كانت معنية بأمل بلا عنوان..

«أمل بلا عنوان» وجد عنواني أنا في كلِّ موقف مررتُ به.

«أمل بلا عنوان».. عالم بلا قيود.

* * *

آخر كلمة

كنت أكره مساعدة أمي في تحضير الطاولة قبل أن أكون مُقعـدَة، لكننـي الآن أتمنى لو تعود تلك الأيـام، فالإنسان دومًا يتمنى ما فقده مع الأسف.

ليـس كل شـيء يعتمد على المـال، لكن الحيـاة والظروف هـي التي تلعب دورها فتجعل مـن الإنسان يصدق حتمًا حقيقة أن المال يفعل كل شيء، ومع هذا يبقى الإنسان العقلاني وحده مَن يستطيع استغلال هذا.

كلنا خائفون من المجهول، لكن شـجاعتنا وإرادتنا كفيلة مـن أجل المحاولة، المهم أن تحاول حتى لو كان نجاحك نصف الذي أردت..

كونـوا واثقيـن أنني في قلبكم حتى لو تركـت الحياة على هذه الرواية، انتهت صفحاتي مع الأسـف، كانت مغامرة مذهلة بصحبتكم.. سنقتُل الإعاقة.

كلنا مع ذوي الاحتياجات الخاصة..

ابتسموا.. روايتي قدَّمتها حبًّا لكم.

انتظـروا أمـلًا جديـدًا يكـون دومًا بـلا عنـوان، يدفع فقط للمُضي قُدُمًا حتى تتحقق الأحلام.